دراسات سيكلوجية

تأليف

سلامة موسى

الكتاب: دراسات سيكلوجية
الكاتب: سلامة موسى
الطبعة: ٢٠٢١

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)
٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة
جمهورية مصر العربية
هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣
http://www. bookapa.com E-mail: info@bookapa.com

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر

موسى ، سلامة
دراسات سيكلوجية/ سلامة موسى
– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.
١٥٦ ص، ١٨*٢١ سم.
الترقيم الدولى: ٣ – ٨٥ – ٦٨٢٣ – ٩٧٧– ٩٧٨
أ – العنوان رقم الإيداع : ١٣١٥٧ / ٢٠٢٠

دراسات سيكلوجية

وكالة الصحافة العربية

«ناشرون»

العواطف المضغوطة والسلوك الشاذ

عندما يقول أحدنا إنه درس فرويد فإنه لا يعني بذلك أنه يسلِّم بكل ما قاله وزعمه عن النفس البشرية. كما أن مَن درسوا داروين أو أينشتين أو سارتر أو هيجل لا يسلِّمون بكل ما قاله هؤلاء؛ إذ ليس الدرس حفظًا «عن ظهر قلب»، وليست السيكلوجية رقية نتلوها على المريض فيُشفى، وإنما هي تقليب للفكرة أو الفكرات ومناقشتها، بل قد يكون الدرس بالانعطاف بها إلى وجهات أخرى غير وجهتها الأصلية.

بل أزيد على ذلك وأقول إننا ننتفع أحيانًا بالخطأ كما ننتفع بالإصابة عند المفكر العظيم. وقد سبق لي أن قلت مثل هذا القول عن فرويد. وأخطاء فرويد —— أو ما يزعم البعض أنها أخطاء —— قد بعثت مئات المفكرين في أنحاء العالم المتمدن على بحث النفس البشرية، يوافقون فيها فرويد أو يخالفونه أو يناقضونه، ولكنهم في كل ذلك يبحثون.

وهنا عظمة هذا المفكر الذي شرع قبل ستين سنة يتساءل: لمَ يسلك زيد هذا السلوك الشاذ ويسلك عمرو هذا السلوك السوي؟

ثم يجيب بأن علة ذلك ترجع إلى أيام الطفولة. وصحيح أنه شرح العوامل في هذه الطفولة بما يدعو إلى مناقشة فروضه ونظرياته، ولكنه عيَّن حدود المسألة وطالبنا بالحل إذا لم نقبل حله هو الذي وضعه.

وماذا نقول في رجل يبدأ بحوثه بقوله إن لكل اتجاه أو حركة أو سلوك علة؟ وإننا إذا كنا نجد رجلًا مستقيمًا وآخر شاذًّا، ثم رجلًا صالحًا وآخر مجرمًا، ثم امرأة مستهترة وأخرى متحفظة، فإننا يجب أن نبحث عن العلة في هذه الحالات: هل هي في العائلة، في المجتمع، في الوراثة، في الوسط؟

لقد قال هو إنها في العائلة، في علاقة الطفل بأبويه في السنوات الأولى من العمر.

ونستطيع أن نخالفه هنا، ولكننا لا نستطيع أن نخرج بذلك من المشكلة وهي: لماذا يختلف الناس في سلوكهم؟

وهذا السؤال هو سؤاله، وهو في صميم السيكلوجية التي تبحث «النفس» في ارتفاعها وانخفاضها، وسلامتها ومرضها، واستقامتها وانحرافها.

وكلمات «النفس» و«العقل الباطن» و«مركب النقص» و«النرجسية» و«مركب أوديب» هي كلمات مؤقتة تحمل كثيرًا من الشبهات، وعندما يتقدم العلم السيكلوجي يستطيع أن يضع المفردات العلمية الدقيقة لهذه الكلمات المؤقتة. وكثير من المناقشات والاختلافات يرجع إلى الشكوك التي تحيط بهذه الكلمات وغيرها؛ لأنها غير محددة المعاني.

وأحب أن أصف مؤلفات فرويد بأنها فلسفة، بل هي أحيانًا فن أكثر مما هي علم؛ ذلك أني أحس أنها أنارت بصيرتي أو زادتها وحفزتني على

الدرس، وإن يكن هذا الدرس يختلف بل ينحرف عن اتجاهات فرويد، وربما يكون خير وصف لأفكار فرويد أنها خمائر.

ويكفي أن نلخِّص أفكار فرويد أو نظرياته أو فروضه فيما يلي:

(١) الفكرة الأولى أن علاقة الطفل بوالديه، منذ يُولد، إلى السنة الثانية من العمر تعيِّن له مركبًا؛ أي عقدة نفسية، تتألف من استجاباتها ورجوعها أخلاقه وتصرفاته سائر عمره ولو بلغ السبعين أو الثمانين من العمر. وهذا المركب يُسمى «مركب أوديب».

وفرويد يصف هذا المركب بأنه علاقة عشقية جنسية بين الطفل وأمه. وهذا العشق يُحدِث غَيرة بينه وبين أبيه، ثم ينشأ صراع في نفسه بعد ذلك بين حبِّه وغيرته تتكون منه بذرة الأخلاق التي تنمو في اتجاهات معينة وفق السنة الأولى من عمره.

وإذا كنا نحن نشمئز من هذا التفسير، فإنه ليس بيننا مَن ينكر أن في الطفل نبضات وإحساسات جنسية غامضة تعم جسمه كله، بل هذه النبضات تبقى طيلة أعمارنا وإن كانت الحدة فيها تتحيز أجزاء معينة عندما نكبر ونراهق.

واختلافنا مع فرويد هنا ليس بشأن الإنكار لهذه الإحساسات الجنسية في الأطفال وإنما بشأن الخطورة التي يعلقها في مستقبل الأخلاق بشأن هذه العلاقة بين الطفل وأمه وأبيه. وعندي أنه يسرف في المبالغة في قيمة هذه العلاقة، وأنه يصف هذه الإحساسات بأنها «حب جنسي» مع

أنها لا تزيد على إحساس المراهق بلذة الاحتكاك بيده في «العادة السرية»؛ أي إنها إحساس فقط، بل إن هذه العادة تعود إلى هذا الإحساس الطفلي القديم.

ولكنه هنا – أي فرويد – عندما وضعنا موضع التأمل لهذه العلاقة حملنا على أن نبحث موقف الأطفال في السنوات الثلاث أو الأربع الأولى من أعمارهم، فانحرفنا عن الطريق الذي اتبعه هو في التفسير، ولكننا هبطنا على عالم كبير في معاني التربية والأخلاق. وبذلك أخصب فرويد تفكيرنا حتى ونحن نخالفه، ونتيجة ذلك أننا نقول الآن: «إن أخلاقنا وميولنا واتجاهاتنا وأطماعنا هي ثمرة ما انغرس في نفوسنا مدة السنوات الثلاث أو الأربع الأولى من أعمارنا.»

(٢) والفكرة الثانية أن أحلامنا هي أفكارنا الحرة، تبدو لنا في رموز تحتاج إلى التفسير حتى نعرف بها أعماق نفوسنا الخافية علينا. فقد يعتقد أحدنا أنه رجل صالح ولكنه في أحلامه، التي لا تحتاج إلى صعوبة كبيرة في التفسير، يثبت أن له نزعات إجرامية خطيرة، وأنه يوشك أن يرتكبها ويحتاج إلى التحذير والنصح.

(٣) والفكرة الثالثة التي تعلمناها من فرويد هي «العقل الباطن»، وهي كلمة سيئة وأسوأ منها «اللاشعور» و«اللاوعي».

ومرجع العقل الباطن أننا نكره استذكار ما يؤلمنا أو يخزينا. ألسنا نقول لأحد الأصدقاء عندما يحدثنا عن شخص نكرهه: «دعنا من هذه

السيرة، لعنة الله عليه!»

والمعنى هنا أننا لا نطيق ذكر الأشياء أو الناس الذين نكرههم وعندئذٍ نحن ننساهم أو نكظم سيرتهم أو نضغطها حتى لا ترتفع إلى وعينا، فنتألم، ولكننا بهذا العمل لا نمحو الذكرى؛ إذ هي تبقى مختفية في «العقل الباطن». فإذا حدث لنا حادث مشابه لحادث قد ضغطناه أو كظمناه (أي نسيناه) قبل عشرين أو ثلاثين سنة، فإن عواطف الغضب، أو الخوف، أو الاشمئزاز، أو الخزي، تعود إلينا قوية دينامية، فتعين سلوكنا واتجاهاتنا.

نسينا الحادث البغيض وبقيت العاطفة التي كانت تلابسه مختبئة فيما نسميه «العقل الباطن».

والأحلام تفرج عنا بعض التفريج برموز تحتاج إلى التفسير، ولكن هذه العواطف المكظومة، المضغوطة، المنسية، في العقل الباطن، كثيرًا ما تحفزنا إلى سلوك شاذ إجرامي كما ترى في المثال التالي: عمد بعض السيكلوجيين في إنجلترا إلى تحليل وتنويم بعض المجرمين الذين ارتكبوا جريمة القتل العمد، فوجدوا أنهم جميعًا تقريبًا عندما يُنوَّمون ثم يُستجوبون يردون على الأسئلة التي توجَّه إليهم بشأن الأسباب لارتكاب جريمتهم بذكر أسماء أخرى غير أسماء الأشخاص الذين قتلوهم. وعند البحث عن أسماء هؤلاء الأشخاص نجد أنهم كانوا خصومهم أيام الطفولة.

هنا البذرة الخصبة التي زرعها فرويد.

البيئة الأولى للعائلة هي كل شيء في الأخلاق تقريبًا.

وكأن المجرم الذي قتل زيدًا وهو في سن الأربعين أو الخمسين إنما كان يقتل رمزًا، وكأن هذا الخصم قد أحدث انفعالًا عميقًا كظم في نفسه، وهو طفل، ثم جاءت المناسبة أو المشابهة للموقف القديم، فحدث الانتقام بقتل شخص آخر.

(٤) والفكرة الرابعة التي تعلمناها من فرويد هي «فن» التحليل. والتحليل هو إيجاد حالة نضع الشخص فيها بحيث يسترخي كأنه في نوم ويفكر فيها كأنه في حلم، وعندئذٍ يبوح ويستسلم للانفعالات التي كمنت وتعفنت في نفسه منذ عشرين أو ثلاثين سنة، كمنت لأنه كان يضغطها وينساها.

وهو حين يبوح يرتاح فيذهب عنه التوتر والكرب اللذان لم يكن يعرف سببهما.

ثم هو يعرف مرجع التوتر والكرب فيشفى منهما؛ لأنه يتعقل ويقول: «ما دام السبب لهما قد زال فإني يجب أن أرتاح وأتخلص منهما.»

هذه هي الفكرات الأربع الخصبة في فرويد. وقد تفرعت منها عشرات الفكرات الأخرى كان فضل فرويد فيها الإيحاء والتلميح.

وميزة فرويد في جميع أبحاثه أنه جريء ومخلص، فمتى حطَّ على فكرة فإنه لا يبالي أن يقول بها ويشرحها ولو خالفت مألوف الناس، وخاصة العامة من «العلماء» الذين يحتضنون الخرافات فيما خرج عن العلم الذي يدرسونه، ثم قد يدعوه إخلاصه إلى أن ينكِر بعض أقواله كما فعل في

«الرغبة في الموت» التي ظن أنها حقيقة استخلصها من التحليل النفسي لبعض المرضى، ثم عاد فأنكرها.

إن الذين عاصروا فرويد ودرسوه يحسون أن وجودهم ووعيهم قد زاد في الدنيا.

المرضى الذين يعلموننا

قرأت كتابًا هذا الأسبوع بعنوان «عاهات العبقرية» لمؤلفه الدكتور بيت، بعثني على التأمل ثم التفكير.

فقد تناول المؤلف – هو طبيب – خمسة عشر مؤلِّفًا عبقريًّا من الإنجليز والفرنسيين، ثم نقَّب عن أمراضهم، ثم وصل بينها وبين عبقرياتهم، بل علَّل هذه العبقريات، في قسم كبير منها، بهذه الأمراض.

ولأني أعرف هؤلاء المؤلفين الذين ذكرهم وقرأت لكل منهم بعض مؤلفاته أو جميعها، فقد لذَّ لي أن أتابعهم في القرحة المعدية التي كانت تنخس كارليل من وقت لآخر، أو في الدرن الذي كان ينصب الموت شبحًا دائمًا أمام الشاعر كيتس، أو في الضغط العالي للدم وهو مرض الكاتب العظيم بالزاك.

ولكن العاهة التي تحفِّز إلى التفكير ليست على الدوام مرضًا في الجسم؛ إذ هي قد تكون عاهة نفسية، كالعرج في الشاعر بيرون الذي عيَّرته به أمه في لحظة غابت فيها عن وجدانها الأموي، فقال لها وهو يتمزق: «أمي، أنا ولدت أعرج.» وكان في هذه الكلمة انتقامه وحزنه معًا.

أو قد تكون العاهة عجزًا جنسيًّا كما في جون رسكين وكارليل؛ فقد فرَّت زوجة الأول ولم تبالِ أن تفضحه، أما زوجة الثاني فقد أحبته ولكنها لم تنكر أنها كانت تبيت في غرفة أخرى. ومثل هذه العاهة جديرة بأن تحفِّز

على السخط.

هو سخط داخلي شخصي يعود سخطًا خارجيًّا اجتماعيًّا.

يسخط المفكِّر على نفسه فيتأكله حقد على المجتمع، فيفكِّر ويحاول التفوق والتعظم كي يستعيض بهما عما يحس من هوان وانكسار.

هو الإحساس بالنقص يبعث على الرغبة في التكمل.

لقد كان لوفكاديو هيرن الذي ألَّف أجمل الكتب عن اليابان مشوَّهًا، فأمضى حياته كلها وهو يصف جمال اليابان: أرضًا وماءً وجبالًا ونساءً وصبيانًا.

وشُوهَة بيرون الأعرج جعلته يرصد حياته على جمال الفن في الشعر.

كلنا نعرف أن السُّم الخفيف ينبه إلى النشاط، ولكن الكثير منه يُخمِد أو يُمِيت.

قليل من الزرنيخ يقوي وينشِّط، ولكن الكثير منه يقتل.

وأمراضنا، مثل النقرس، والسكر، والسفلس، تفرز سمومًا أو تُحدِث اضطرابات في أجسامنا. نتألم منها فنتأمل أو نأرق فنفكر، أو نسخط فندعو إلى ثورة أو تطور.

كان داروين وكارليل يأرقان في الليل إلى قرابة الفجر، وكان كلاهما يشكو الهضم السيئ أو القرحة المعدية. لم يكونا يعرفان ما يشكوان منه،

ولكن هذا الأرق كان فترة الاختمار للتفكير العلمي عند الأول، وهو التفكير الذي أثمر نظرية التطور، كما كان فترة الاختمار الأدبي عند الثاني، وهو اختمار أخرج لنا عديدًا من المؤلفات التي ألهبت العقول، وأنارت، وأشرقت، وأوجدت معاني جديدة للديمقراطية والإنسانية في مثل «الأبطال» و«الثورة الفرنسية» من مؤلفاته.

ولكن سموم الجسم أقل فعلًا في تحريك الذهن من سموم النفس، امرأة الأب التي عشنا معها وأتعستنا ونحن أطفال.

أب ظالم مستبد حاول أن يكسر عود الطفولة، ولكن العود صَلُب واستقام، ثم نشأ الطفل وهو يكره الأب، ثم كانت ثورته السابقة على هذا الأب ثورة على المجتمع كله، يبحث عيوبه ويدعو إلى المساواة والشرف ومكافحة الظلم ... مكافحة ظلم الأب قد استحالت إلى مكافحة ظلم المجتمع.

وشُوهَة الجسم التي ولدنا بها، عرج أو دمامة، هي في النهاية شُوهَة النفس التي تحفِّز الأشوه على سد النقص، ونشدان الجمال والكمال.

بل يجب ألا ننسى أن الفضيحة السرية في البيت قد تبقى وخزًا يَخُز وينخس وينبه ويوقظ.

وبهذه الأمراض – أمراض الجسم وأمراض النفس – يستحيل الذكاء إلى عبقرية.

ولكن «الذكاء» هو الذي يستحيل إلى عبقرية، أما إذا كانت هناك بلادة أو غفلة أو بلاهة فإن الاستحالة قد تكون إلى الإجرام. هي عندئذٍ محاولة الأطفال لأن يكونوا عظماء أفذاذًا ولكن بأسلوب الأطفال.

ما هي العاهة التي جعلت فاروق يستحيل إلى مجرم؟

كل ذي عاهة جبار.

جبار في ذكائه حتى لقد يصل إلى منصب الوزارة ولو كان أعمى، ولكن إذا لم يكن له من الذكاء أساس، فإنه يتسول حين يكون أعمى.

هؤلاء العباقرة الذين ذكرهم الدكتور بيت كلهم مريض، إما بعاهة في الجسم تؤلم وتؤرق. وإما بعاهة في النفس، كدت أقول في الشرف، تؤلم وتؤرق.

وفي كلتا الحالتين يؤدي الأرق إلى التفكير المثمر.

كان كارليل ساخطًا يحس أنه مظلوم؛ إذ لماذا يقضي عليه القدر بالعجز والهوان أمام زوجته، وكانت من جميلات إنجلترا؟

وهو يتضور ويَعُد لقيماته حين يأكل ولكنه مع ذلك يتألم.

وقد قيل له إنها قرحة في الأمعاء الصغيرة، وقيل له إنها زيغ في البصر، وقيلت له أسباب أخرى.

وقال هو إنه يتألم لكثرة الضوضاء ... كلام مريض من رجل مريض

ساخط على نفسه ثم ساخط على المجتمع.

وهو يتحدث كما لو كان نبيًّا ويأخذ نفسه بصرامة يحاول أن يأخذ المجتمع بمثلها. وهو لهذا السخط على المجتمع يؤلف كتابه «الأبطال»، وكأنه هتلر يدعو إلى الزعامة وقيادة هؤلاء العامة الذين يقلقونه بضوضائهم وغلاظتهم وعاميتهم.

وقد عاصر نابليون ولكنه يَعُده من الأبطال.

أجل، إن نابليون قد نبَّهه إلى أنه مخدوع بالكثيرين ممن سماهم أبطالًا، لقد عاصر الثورة الفرنسية، فهو يتأملها ويفكِّر فيها كثيرًا، ثم يؤلِّف كتابه عنها، كتابًا خالدًا تزأر كلماته وتصرخ: الشعب، الشعب، الشعب. وتحس لفرط حماسته أنه كتبه في نَفَس واحد.

وهو يبدأ هذا الكتاب بداية رمزية هي قصة العقد، عقد اللؤلؤ الذي فقدته الملكة العاشقة في استهتار الملوك.

وهو ينهي الكتاب نهاية رمزية هي قصة إعدام الملكين وإقدام الشعب الفرنسي على إيجاد سنة جديدة وشهور جديدة وأسابيع جديدة، هي السنة الأولى (في ١٧٩٢).

بداية الكتاب فسق واستهتار بين الملوك.

ونهاية الكتاب شعب يكتب تاريخه بيده ويستولي على مستقبله.

لقد ذهب عصر الأبطال ونحن في عصر الشعوب.

وهنا ننظر فيما يقوله عنه الدكتور بيت؛ فإنه يذكر تحت عنوان «مأساة زواجه» أنه تزوج زوجته جين الجميلة الذكية.

وكان لهما صديق هو فرود المؤرخ العظيم. وكان كارليل قد نصَّ في وصيته على تعيينه قيمًا على مخلفاته الأدبية. وهذا يدل على أن فرود كان على مكانة كبيرة، بل حميمة، عند كارليل.

وكتب فرود ترجمة كارليل، وذكر فيها القطيعة القهرية بين الزوجين، وأن كلًّا منهما كان يبيت في غرفة خاصة به.

وكان كارليل ممعودًا يشكو عللًا غامضة في جوفه، وُصف له لعلاجها أن يتناول مسحوق الزئبق، ولكنه لم ينتفع به.

وكما يحدث في مثل هذه الحالات جعل كارليل يستوصف الأطباء والدجالين كي يُشفى من متاعبه، فوصف له بعضهم تمارين رياضية، ووصف آخر زيت الخروع، ووصف ثالث العلاج المائي، وكل هذه العلاجات كانت عقيمة حتى قال: «لا أعرف بين أبناء آدم مَن هم أقل منفعة من الأطباء.»

وكانت هذه كلمة يأس، وكان يعود بين كل تجربة وأخرى إلى مسحوق الزئبق (أي الطباشير والزئبق).

وكان هو يعتقد أن آلامه تعود إلى معدته وكبده.

ولكن هذه الآلام كانت تنتقل في منطقة البطن مما جعل أحد أطباء العيون يشخص مرضه بأنه زيغ في البصر، والواقع أن أوجاعه كلها ذهبت عنه تقريبًا حين أسن ولم يَعُد يكتب ويقرأ كثيرًا.

أعظم ما يغرينا بالسؤال عن كارليل هو: «لو أن كارليل كان رجلًا سويًّا سعيدًا قانعًا هل كانت عبقريته تجد التعبير والبيان في هذا الوسط الذهني الذي خلَّد شهرته؟» بل هل كان يمكن أن يكون عبقريًّا؟

«تأمل بتهوفن وبوديلير وجوجان، واذكر ما كانت تكون نتيجة صحة الجسم والعقل التامة عندهم في عبقرياتهم. وبكلمة أخرى: إلى أي مدى يتكيف العبقري بما نسميه «حادثة» وقعت له في حياته؟ لو أن كارليل الحذِر المتقشف كان كأحد الناس العاديين، يستطيع أن يأكل كما يهوى ومتى يهوى، هل كان يُصدِر هذه الأحكام؟ وهل كان يغسل قلمه في السم والعلقم حين كان يعبِّر عنها؟»

«إننا لنعرف أن مرضى النفس يتألمون ويشكون مما يكابدون من الزعزعة وما تولده هذه عندهم من إحساس النقص، ولكن هذه الحال نفسها، هذه الزعزعة وهذا النقص هي التي تعمل فيهم، كما لو كانت مهمازًا؛ كي ينشطوا ويخلقوا، كما أنها تزيدهم عمقًا في البصيرة حين يرون مثل هذا النقص في الآخرين.»

«لما وجد أنه لا يؤمن بعقيدته الدينية، وعرف أنه لم يبقَ أمامه غير المادية تراجع وهو في رعب، وقام في نفسه صراع يمزقها حتى ليقول: «لقد

بقيت ثلاثة أسابيع وأنا لا أعرف النوم.» ولكن هذه الحشرجة الذهنية انتهت باهتدائه إلى «ميلاد روحي جديد».»

«وهو في شقائه هذا يحس حبًّا جديدًا للطبقات المسحوقة في الشعب فيؤلف كتابه «علامات الزمن» الذي يشرح فيه انحطاط التفكير السياسي، ويحمل على فسق الساسة الذين لا يخدمون الشعب بل يخدمون مصالحهم.»

«وهو حين يؤلف كتابه عن الثورة الفرنسية يفرح بل يطرب به ويقول: «هاكم كتابًا لم يخرج مثله منذ مائة سنة، وهو كتاب يخرج ملتهبًا مارقًا من قلب رجل حي.»»

كان كارليل واحدًا من عشرات أو مئات المرضى الذين علمونا.

النفس السليمة في المجتمع السليم

كان المثل الروماني يقول: «العقل السليم في الجسم السليم.»

وبعض الناس يظن أن هذا المثل حكمة، مع أنه يخلو من الحكمة، ولو عُكس لكان أقرب إلى الصحة؛ ذلك أننا نجد الكثيرين من المرضى بالدرن أو السكر أو النقرس أو الروماتزم لا تؤثر أمراضهم في سلامة عقولهم، بل لعل هذه الأمراض تزيد عقولهم يقظة.

ولكن العقل المريض كثيرًا ما يؤدي إلى مرض الجسم. كما نرى مثلًا في مَن يتوهم وهمًا خاصًّا يجعله يعزف عن الطعام، أو هو يخشى الإفلاس أو الموت فيبقى في قلق يؤدي إلى هزال الجسم.

والعقل مع ذلك ليس كل شيء؛ لأننا لا نسلك في الحياة بما لنا من عقل دائمًا، وإنما بما لنا من نَفْس.

نحن نستطيع بالعقل أن نجمع أو نطرح الأرقام ونحل مشكلة حسابية أو كيمائية.

ولكننا بالنَّفْس نحل مشكلة زوجية؛ لأننا هنا لا نعتمد على منطق الأرقام وإنما على القيم الروحية – أي الإنسانية – أو الاجتماعية، وما تحمل من معاني الشرف والمروءة والخدمة.

ما هي النفس؟

هي كياننا الاجتماعي، وهي العقل والعاطفة معًا، وهي موقف معين نتخذه نحو الكون والدنيا، وهي مجموعة عقائدنا الموروثة والمكسوبة، وهي القيم الروحية والأخلاقية التي نحترمها ونتعلق بها، وهي إحساساتنا الفنية وأذواقنا، وكل هذه تنتهي بتعيين اتجاه عواطفنا ومنهج العيش الذي نحيا به.

والنفس لذلك أكبر من العقل.

ولكن هذه النفس إنما تتكون بالمجتمع.

وإذا لم يكن هناك مجتمع نعيش فيه، فليس هناك نفس؛ أي ليس هناك عواطف اجتماعية أو عقائد أو قيم أخلاقية أو إحساسات فنية ... إلخ.

ولكن هذه النفس تمرض أحيانًا بالجنون أو الإجرام أو الشذوذ الجنسي، وهذه الأمراض جميعها هي استجابة النفس لوسط اجتماعي معين.

ذلك أن المجتمع السليم يجب أن يخلو، أو يكاد يخلو، من الأمراض النفسية.

ولكن إذا كان المجتمع قد أفشى الفاقة فبعث الحرمان فإنه يحيل عددًا كبيرًا من الأفراد إلى مجرمين يخطفون ويسرقون ويغتالون.

وإذا كان هذا المجتمع قد أفشى الخوف والقلق من المستقبل فإن أفراده يفرون منهما إلى الخمر أو إلى أي مخدر آخر أسوأ من الخمر.

وإذا طغى الخوف والقلق فإن أفراده يفرون إلى الجنون، بحيث يخترع كل منهم، وهو على غير وجدان بما يفعل، جنونًا معينًا يرتاح إليه ويستقر عليه حتى يقضي سائر عمره وهو سكران بخمر نفسه يغيب بها عن أسباب القلق والخوف.

وإذا كان هذا المجتمع يفصل بين الجنسين ويجعل الزواج مع ذلك مستحيلًا إلا بعد سن الثلاثين فإن النفس المحرومة عندئذٍ تشذ، وتتفشى العاهة النوَّاسية بين الجنسين.

وهذا كلام واضح لا تجدي فيه المكابرة بالجدل العابث أو المغالطة الماكرة، فالإجرام والجنون والعاهة النواسية هي جميعها أمراض نفسية تعود إلى أحوال معينة في المجتمع، تعود إلى مجتمع غير سليم.

فإذا توافر العمل والكسب للجميع زالت جرائم السرقة والاغتيال والنصب.

وإذا توافر الاختلاط بين الجنسين وأمكن الزواج في سن مبكرة زالت العاهة النواسية.

قلنا «زالت»، ولكن هذا لا يعني أنه قد يكون هناك واحد أو اثنان في المائة يقعون في أحد هذه الأمراض لأسباب أخرى محلية، مثل نظام

العائلة أو نشوء مركَّبات سيئة أيام الطفولة أو نحو ذلك.

ونترك الأمراض وننظر فيما نسميه الإحساس الفني في الأديب أو الفنان، ولنسأل أولًا: لماذا يختلف الفن بين أمة وأخرى؟

لماذا يكون للألمان مثلًا ألحان موسيقية وأغانٍ ورقص تختلف كلها عما عندنا من ألحان وأغانٍ ورقص؟

السبب أو الأصل لهذا الاختلاف واضح، وهو أن جميع هذه الفنون تعتمد على عواطف واتجاهات نفسية في أبناء الشعب، وهذه العواطف والاتجاهات اكتسبها هؤلاء الأبناء من المجتمع الذي يعيشون فيه، وإذا تغير المجتمع تغير الرقص والألحان والأغاني.

مجتمعنا يختلف عن المجتمع الألماني؛ ولذلك ففنوننا الثلاثة هذه تختلف عما يضارعها عند الألمان.

وقد ورثنا نحن فنوننا الثلاثة هذه من الاتجاهات النفسية التي عاشت بها مجتمعاتنا في الألفين من السنين الماضية، وهي — أي هذه الفنون التي نسميها منحطة — تعبر عن مجتمعاتنا المنحطة في الألفين من السنين الماضية. اعتبر الرقص مثلًا، فإن الراقصة المصرية في التفاتها إلى البطن والكتفين وفي ثني أعضائها وميوعتها تمثل الأنوثة الحيوانية؛ لأن المجتمع المصري مضى عليه ألفان من السنين وهو يعامل المرأة كما لو كانت أنثى فقط.

ثم اعتبر الغناء الباكي المتنهد الحزين، فهو يمثل المجتمع المصري الذي سحقه المستبدون والمستعمرون في الألفين من السنين الماضية، ومعنى هذا أن أبناء هذا المجتمع يبكون بكاء سريًّا في نفوسهم، ولذلك يرتاحون إلى المغني أو الملحن الذي يعبِّر عن هذا البكاء في الغناء أو اللحن.

الفنون اجتماعية، وعبقرية الفنان اجتماعية؛ لأن الفنان هو الذي تتبلور في نفسه عواطف المجتمع الذي يعيش فيه فيعبِّر عنها بالأسلوب الفني الذي يرتاح إليه أبناء هذا المجتمع، فما دام أبناء المجتمع يبكون ويتنهدون فعليه هو أن يحسن البكاء ويتقن التنهد.

لقد كانت أسمهان تمثلنا تمثيلًا عبقريًّا في البكاء والتنهد؛ ولذلك يقول عنها محبوها إنها أفضل من جميع المغنيات.

ونستطيع أن نذكر مثالين من الأدب العربي القديم، وأن نعين البواعث الاجتماعية التي ألهمته فإن عندنا كتابين عظيمين في هذا الأدب: أحدهما «الأغاني» الذي أُلِّف للملوك والأمراء والأثرياء، وهو خمر ونساء في واقع الخمر والنساء وليس في أحلامهما. والثاني هو «ألف ليلة وليلة» الذي أُلِّف للعامة بلغة العامة وهو خمر وطعام ونساء، ولكن ليس عن الواقع وإنما عن الأحلام؛ أي أحلام الفقراء المحرومين الذين كانوا يشتهون ولا يجدون.

الأول يصف لنا الحياة الواقعة في مجتمع المترفين، والثاني يصف لنا الحياة الحالمة في مجتمع المحرومين.

ولا عجب أن يُقرأ الثاني كثيرًا في مصر ...

ومع هذا الذي قلت يجب أن أعترف بأن هناك ساخطين على الرقص واللحن والغناء في مصر، وأن هناك محاولات لتغيير هذه الفنون الثلاثة.

ولكني أَعُدُّ هؤلاء الساخطين منحرفين عن المجتمع المصري؛ وذلك لأنهم نشئوا في الثقافة أو الحضارة الأوروبية أو تعوَّدوهما؛ أي إنهم نشئوا في مجتمع آخر فأخذوا بعواطفه وإحساساته.

ولكن هذه الفنون لن تتغير إلا إذا تغير المجتمع المصري.

إلا إذا تغيَّر في نظرته للمرأة وتقبل راضيًا مركزها الاجتماعي الجديد باعتبارها إنسانًا، وليست أنثى فقط، إنسانًا له حق الإقدام والاستقلال والتعلم والاختيار.

وإلا إذا اختلط الجنسان من المهد إلى اللحد بحيث لا يعرف أحد الجنسين الانفصال عن الآخر ولو لأسبوع واحد في حياته.

وإلا إذا نظرنا إلى الحياة نظرة الاستبشار والتيمن وكففنا عن الخوف، وإلا إذا توافر العمل والكسب لشبابنا وفتياتنا حتى لا يقلقوا.

لقد رأيت الرقص الهندي حيث يرقص الرجال مع النساء، وفهمت منه، بل أيقنت، أن المجتمع الهندي قد تغيَّر.

وأنا أستنتج هذا التغير في المجتمع الهندي بهذا الرقص الجديد أكثر مما

أستنتجه باختيار شقيقة نهرو رئيسة لهيئة الأمم.

إن النفس السليمة لا تكون إلا في المجتمع السليم. وهذه الفنون الجميلة هي في صميمها، فنون نفسية، وهي مريضة عندنا؛ لأن المجتمع مريض.

هذا العلم الجديد

حدث منذ مدة قريبة أن أحد البنائين، وكان قد تجاوز الخمسين، احتاج إلى أن يقف على خشبة تعترض وتصل بين جدارين، وكانت على ارتفاع نحو عشر طبقات من البناء. فلما توسَّط الخشبة نظر إلى أسفل فوجد الهوة التي تفصل بينه وبين الأرض، فتجمدت عضلاته، وجعل يصرخ، كأن كابوسًا كان قد استولى عليه، وعجز عن أن يتقدم أو أن يتأخر.

وحضر إليه زملاؤه وجعلوا يشجعونه على النهوض، ولكنه لم يستطع. ولم تكن الخشبة تتسع لأكثر من واحد يقف عليها؛ ولذلك لم يقترب منه أحد لمعاونته على النهوض، واقتصروا على تشجيعه وتحريضه. وبعد أن أقنعوه بأن يكف عن الصراخ وبعد أن استطاعوا تهدئته قليلًا استطاع، وهو يلهث، أن يصل إلى نهاية الخشبة وينجو.

وجعل زملاؤه يضحكون ويسخرون منه، ويروحون ويجيئون على الخشبة في نشاط حتى ضحك هو من نفسه. وانتهى عمل اليوم وقصد كل منهم إلى منزله، ولكن في الصباح التالي لم يحضر هذا العامل ولم يره زملاؤه بعد ذلك، ويبدو أنه ترك هذه الصناعة واختار ما هو أقل خطرًا وخوفًا منها.

وحدث أن فتاة تزوجت بضغط من أبويها، ولم تكن تحب زوجها،

وليس في الدنيا شيء أو إنسان نكرهه قدر ما نكره الاقتراب الجنسي من شخص لا نحبه. واشمأزت الفتاة، ولكن عاطفة الاشمئزاز عمَّت كيانها النفسي كله، فصارت تشمئز من الطعام أو بعضه فلا تأكل، حتى هزلت. وأصبح اختيار الغذاء لها مشكلة حتى بعد أن انفصلت عن هذا الزوج الذي كانت تكرهه ... مشكلة باقية مع زوال أسبابها الغريبة.

وحدث أن فتاة جميلة كان أبواها يتعلقان بها ويدللانها. ومات الأب، وماتت الأم بعده ببضعة شهور، وتغيرت الدنيا الباسمة إلى دنيا عابسة في وجه الفتاة، فجعلت تنفرد وتنعزل في غرفتها وتحلم بدنيا أخرى في الخيال غير هذه الدنيا، ولذَّ لها الخيال فاستمسكت به وأرسخت كيانها النفسي عليه، واطمأنت إلى حياة الخيال. وكان هذا جنونها الذي رفضت أن تتركه وتعود إلى دنيا الواقع.

فهنا ثلاثة أمثلة عن الاضطراب النفسي الذي قد يصيب أي إنسان إذا كانت طفولته قد سارت في غير الطريق السوي بحيث يكون قد أُخيف وأُزعج وهو دون الثالثة أو الرابعة من العمر؛ فإنه في هذه الحال يكمن الخوف في نفسه حتى إذا اعترضه ظرف مماثل لهذا الخوف القديم عاوده الفزع واستولى عليه جمود الرعب كما حدث في البناء الذي تجمَّد على الخشبة.

وإذا كان قد مرت به حادثة أو حوادث جعلته يشمئز وهو طفل فإن اشمئزازه هذا يبقى كامنًا في نفسه، فإذا بلغ العشرين أو الثلاثين وطرأ عليه طارئ يدعو إلى الاشمئزاز فار به إحساسه القديم، كما حدث لهذه الفتاة.

وإذا كان الطفل قد دُلل في الطفولة وأسرف أبواه في تدليله حتى جعلا له الدنيا كما لو كانت مفروشة بالورود، ثم إذا مات هذان الأبوان، فإن الطفل لا يطيق العيش بعد ذلك، ويستسلم لخيال الجنون.

مَن الذي علَّمنا ذلك؟

الذي علَّمناه هو فرويد. وقد علمناه في كثير من الأخطاء وسلك بنا طريقًا يحفل بالأشواك، حتى لتكاد مهمتنا تقتصر على التخلص من الأخطاء والأشواك.

لا، لم يعلمنا فرويد علمًا ولكنه فتح بصيرتنا لفهم الطبيعة والأشياء فتح بصيرتنا. ثم نحن نحاول الآن أن نفتح عقولنا بالعلم؛ أي بالتجارب.

تعلَّمنا من فرويد، ومن أنصاره وأصدقائه، أن السنوات الأربع الأولى من العمر هي كنز العواطف الذي نستمد منه سائر أعمارنا، وأيما عاطفة سيئة تختبئ في كياننا النفسي فإنها ستُثار وينفض غبارها على حياتنا إذا اصطدمنا بأحداث تولِّد ما يشبه أو يقارب تلك العواطف المندسة في نفوسنا أيام الطفولة.

كلنا يستطيع، إذا كان سليمًا، أن يقف على الخشبة التي تصل بين جدارين في بناء عالٍ. وكل فتاة تستطيع أن تتحمل هذا الاشمئزاز لوقت ما ثم تنساه. وكلنا يستطيع أن يتحمل موت أبويه. ولكن ذلك البناء الذي رعَّب، وتلك الفتاة التي اشمأزت، وتلك الأخرى التي دُللت، كل هؤلاء قد أُسيء إليهم في طفولتهم فعرف الاثنان الأولان الخوف، وعرفت الثالثة

التدليل المسرف الذي أعجزها بعد ذلك عن الاستقلال.

تعلَّمنا من فرويد، ومن أنصاره وخصومه، أننا إذا كظمنا خوفنا أو اشمئزازنا أو شهواتنا أو همومنا فإنها تستحيل إلى بخار محبوس ينفجر عندما يجد مكانًا ضعيفًا يخرج منه. وأعظم ما يهيئ له هذا المكان الضعيف أن يعترض الإنسان صعوبات تشبه ما اعترضه أيام طفولته.

الشجى يبعث الشجى.

ولكن هناك أحيانًا شجى مكتومًا قد كظمناه ونسيناه، فإذا حدث لنا ما يثير مثله أو أقل منه كثيرًا تذكرناه وأحييناه.

اعتبر هذا المثال: كان بافلوف، الذي ربط بين الفسيولوجية والسيكلوجية، يجرِّب تجاربه في الكلاب. وحدث أن فاض ماء النهر المجاور لمكان الكلاب واقتحم الماء أقفاصها فجعلت تنبح وتصرخ ولا تجد مهربًا، وكان صراخًا هستيريًّا؛ أي كان رعبًا وفزعًا وارتعاشًا؛ لأن الماء كان يتزايد ويوشك أن يخنقها.

ثم أُدركت وأُنقذت.

ولكن هذا الرعب والفزع والارتعاش مع الصراخ الهستيري كان يعاودها إذا دخل قليل من الماء، قليل جدًّا، إلى أقفاصها وبلَّل أيديها وسيقانها.

عاطفة قديمة مكظومة في حبسة القفص تُثار من النسيان فتُذكر لأقل

حادث يقاربها أو يشبهها.

وهذا هو شأننا نحن أيضًا. ألا ترى الأم تسمع عن أم قد مات ابنها فتذكر هي أيضًا ابنها الذي مات قبل عشرين سنة، وتبكي وتنتحب؟

لما ألحَّ الألمان على لندن بإلقاء القنابل من طائراتهم عمدت الحكومة البريطانية إلى ترحيل الأطفال إلى أماكن بعيدة في الريف كي تأمن عليهم، ووُجد أن أولئك الأطفال الذين تحملوا الغربة، بل تحملوا الأخطار، هم الذين لم يعرفوا المخاوف والمفازع ولم يضربوا ولم يكظموا في سنيهم الماضية. أما الذين ضُربوا وأُخيفوا وأُفزعوا فكانوا يضطربون ويُرعبون لأقل حادث مخيف.

والعِبرة أننا إذا أردنا السلامة لأبنائنا عندما يكونون شبانًا وكهولًا وشيوخًا فإن خير ما نفعله أن نؤمِّن طفولتهم من الخوف والفزع، أجل، ومن الاشمئزاز والتدليل.

ما الذي يُعمل لسلام النفس؟

أعظم ما يُعمل له، كما قلنا أن نعيش مع أبوين سليمين بحيث لا نجد في طفولتنا خوفًا أو اضطهادًا أو تدليلًا. وأعني التدليل المسرف؛ لأن التدليل المعتدل نافع؛ إذ يجعلنا نهفو إلى البيت ونسعد بذكرى الأبوين طيلة حياتنا.

وأسوأ ما في الخوف والاضطهاد أننا نكظم. ولا بد أن نكظم؛ لأننا لا يمكننا، ونحن أطفال، أن نرد اللطمة أو نفطن إلى أن ما نخاف منه لا

يستحق هذا الرعب الذي نحسه.

ومعظمنا يشقى لأنه خائف، أو بكلمة أخرى لأنه جبان.

نحن جبناء لأننا في طفولتنا مرت بنا مخاوف كثيرة فكمنت، ثم واجهنا مجتمعًا يجعلنا جميعًا مغامرين، نكسب ونخسر، ونخشى الغد، ولا نثق بالمستقبل الذي قد يفاجئنا بالمرض أو الإفلاس أو موت الأبناء أو نحو ذلك.

مخاوف أصيلة في المجتمع تثير مخاوف طفولتنا القديمة فيكون من ذلك شقاؤنا وتوتراتنا.

ولكن الشجاع هو الذي لم تمر به مخاوف في الطفولة إلا في يسر، أو كان مقدارها صغيرًا فتغلب عليه، فهو يجابه الدنيا وما فيها من مغامرات وهو شجاع لا يبالي الفقر أو المرض أو أية فاجعة أخرى؛ أي إنه يجتاز الخشبة التي بين الجدارين بلا خوف وهو سعيد بهذه الشجاعة.

هذا العلم الجديد الذي أنار بصيرتنا ويكاد هذه الأيام ينير عقولنا هو علم النفس البشرية، هي السيكلوجية.

وهو الآن علم؛ أي تجارب في الكلاب والقردة والصبيان والنساء والرجال المتزوجين والعزب، والعاملين والعاطلين والأذكياء والبلداء. وقد تعلمنا منه أن المجتمع يصنع الفرد، والعائلة تصوغ الإنسان، والعائلة بالطبع جزء من المجتمع، بل هي أخطر أجزائه في الموقف السيكلوجي.

وتعلمنا منه أن العبقرية من ناحية، والجريمة من ناحية، إحداهما طرف

لفضائل المجتمع وذكائه والأخرى طرف لرذائله وتوتراته.

تعلمنا منه أن الأمراض النفسية هي أمراض قررها المجتمع لأفراده؛ لأنه رسم خططًا وعيَّن آفاقًا وأوجد وسائل لا تُطاق، فكان منها الخوف حتى إذا سار فيها الفرد اكتسب عواطفها وتحطَّم وجُن. ولن يحيا الفرد حياة سليمة إلا في مجتمع سليم وعائلة سليمة.

وأيما تغيير في المجتمع لا بد أن يحدِث تغييرًا آخر في العواطف والأخلاق والأهداف والوسائل بين الأفراد، ولن نستطيع أن نغيِّر الأخلاق في أمة بالنصح والإرشاد، وإنما نغيِّرها فقط بتغيير وسائل العيش والارتزاق.

لا، لا يمكن فردًا أن يسعد إذا كان يعيش في مجتمع شقي. وأولئك الذين يعيشون في مجتمع شقي ويحاولون تحقيق السعادة لأنفسهم يتخذون عادة أحد طريقين:الطريق الأول: الذي يسلكه الأكثرون، الانفراديون، هو الهروب من المجتمع بالاعتكاف والابتعاد عن مشاكله، وقد يشربون الخمر أو يقرءون القصص البوليسية؛ كي يخدروا عقولهم ويغيبوا عن حقائق هذا المجتمع، وهؤلاء سلبيون.

والطريق الثاني: الذي يسلكه الأقلون الاجتماعيون هو طريق الكفاح الذي يمارسونه كي يغيِّروا هذا المجتمع ويصلحوا مؤسساته التي تعفنت ويوجِدوا الطمأنينة بدلًا من الخوف، وهؤلاء إيجابيون، ولكنهم يفعلون ذلك في غير الإسراف والشطط اللذين وقع فيهما القديس تولستوي.

مرضى النفس وعلاجهم

هناك من الأمراض ما نسميه – نحن العامة – جنونًا أو شذوذًا يصيب أحدنا، فيحاول إخفاءه؛ لأنه يخزيه، أو هو يلجأ إلى طبيب النفس، وقد يجد فيه المعالج النزيه أو المدجل النصاب.

وقد عُرضت على إحدى المحاكم بالقاهرة قضية من هذا النوع اصطدم فيها أطباء الأجسام بأطباء النفوس، كل منهم يقول: «هذه دائرة اختصاصي» وكل منهم يتهم الآخر بالجهل أو بما هو أكثر منه.

ومن الحسن أن يقف الشعب على بعض الحقائق؛ كي يستنير عن هذا الموضوع؛ فإننا، في بلادنا نخرج رويدًا رويدًا من المجتمع الزراعي إلى مجتمع المدينة؛ ولذلك عرفنا السرعة والهرولة في حياتنا، وتحملنا المسئوليات الجديدة والتكاليف المرهقة، ولم نعد نستسلم للقدر. وتأخرت مواعيد الزواج وعمَّ الشبان من الجنسين حرمان يطول أو يقصر، وظهرت المدارس والمعاهد بواجباتها المتعددة التي لا يتحملها جميع الصبيان أو الشبان، وأصبح عيشنا، في الأغلب، مباريات اقتصادية تخزن المتخلف أو المتعطل وتبعث على زيادة الجهد لزيادة الثراء.

وبكلمة أخرى: كنا نعيش حياتنا الريفية القروية في استرخاء ورضى وقناعة فأصبحنا نحيا في المدن في توتر وسخط وخوف.

ولذلك نحن نمرض؛ أي إن نفوسنا تتوتر، ثم لا تطيق التوتر فتنهار.

وحسبك أيها القارئ أن تعرف أن أعظم الأمم في الأخذ بأسلوب العيش المتمدن العصري بكل ما يلابسه من عادات عاطفية وذهنية هي الأمة الأمريكية؛ ولذلك فإن عدد الأسِرَّة للأمراض العقلية والنفسية في مستشفياتها يزيد على عدد الأسِرَّة للأمراض الجسمية.

ولست أقصد إلى القول بأن الأمراض النفسية هي ثمرة الحضارة العصرية وحدها؛ فإن بين الريفيين مَن يمرضون أيضًا، ولكن لكل مريض ريفي واحد نجد نحو خمسين مريضًا «متمدنًا»، بل وربما أكثر إلا في حالات تعدد الأزواج التي تُحدِث أمراضًا نفسية عديدة بين الزوجات.

والأمراض النفسية ليست شاذة كل الشذوذ كما نتوهم، فإنها جميعًا مظاهر مسرفة لحالاتنا — نحن السويين الأصحاء — فإن الفرق بيني وبين المريض أني أنا أقلق في الصباح عندما أعرض لواجبات اليوم، ولكن القلق خفيف أتحمله في يسر، ولكن مثل هذه الواجبات لا يتحملها المريض؛ لأنها تبدو له كما لو كانت جبالًا.

وليست جميع الأمراض النفسية جنونًا مطلقًا يحتاج إلى المارستان؛ فإن هناك حالات من أمراض العقل والنفس يخفيها المريض خزيًا ويحاول التعالج منها، أو لا يحاول؛ إذ قد يلتذها، وهي تجعله عرضة للفضيحة أو السجن أو تصيبه بآلام لا تُطاق تستحيل فيها حياته إلى سواد وظلام.

اعتبر هذه الحالات التي أؤكد لك أنها عن أشخاص حقيقيين:

(١) موظف لا يقل مرتبه السنوي عن ٨٠٠ جنيه لا يتمالك أن

ينشل محفظة جاره في الترام أو القطار أو حتى في زحام!

(٢) شاب رياضي إذا وصل إلى ميدان باب الحديد عرق وارتعش؛ لأنه لا يطيق الإحساس بأنه في ميدان رحب مكشوف؛ فهو يقصد إلى الجدران المحيطة بهذا الميدان ويلتزم السير إلى جوارها حتى يصل إلى المحطة، ومع هذا الحرص لا يطيق الراحة.

(٣) شاب آخر قد لزمه الاشمئزاز؛ فهو يكره خبز الطابون؛ ولذلك يشتري الدقيق بنفسه، ويعجنه، ويخبزه، وهو الذي يطبخ طعامه بنفسه بعد أن يهرأ اللحم بالصابون واللوفة، بل قد يبلغ اشمئزازه من مياه القاهرة أن يسافر إلى الإسكندرية فيملأ صفيحة أو صفيحتين من ماء البحر الملح، ويعود بهما إلى القاهرة فيبخرهما ثم يكثف البخار حتى يجد الماء العذب للشرب.

(٤) صبي في الثالثة عشرة دلَّ الفحص على أنه فوق الذكاء العادي، ولكنه متخلف لا يفهم الدروس.

(٥) شاب مصاب بالعجز الجنسي مع عروسه، مع أنه لم يتوقع هذا من قبل ولم يحدث له قط في ممارساته الجنسية السابقة.

(٦) رجل وقور فوق الخمسين، ولكنه يأخذ بمذهب أبي نواس، ويعجز عن الإقلاع عن رذيلته.

(٧) شاب يسوق السيارة، ولكن تكاد تكون له ملكة بارعة في

التصادم.

(٨) شاب يجد إرهاقًا في البيت وفي المدرسة أو الجامعة مع حرمانه ما يلهو به من نزهة أو زيارة للملاهي، وهذا أدى به إلى إرهاق جنسي دائم؛ فهو إزاء كل هذا الضغط يطلق الدنيا كلها ويخترع لنفسه عالمًا من الأحلام، ويُجن.

هذه أمراض لا يعرفها الناس؛ لأن أصحابها يخفونها، وهي بالطبع تحتاج إلى العلاج، ويمكن علاجها.

ما هي الأسباب للأمراض النفسية والعقلية؟

اعتقادي أن الشخص الذي أمضى طفولته بين أبوين حكيمين، لم يدللاه ولم يضطهداه، ولم يجد قسوة أو تعذيبًا لجسمه أو نفسه، ولم يجد ما أخافه إلى درجة الإفزاع، ولم تثر غيرته أو ثورته لوجود إخوة قد استبدوا به، إلى غير ذلك، مثل هذا الشخص يستطيع أيام شبابه أو كهولته أن يتحمل جبالًا من المصاعب دون أن تتزعزع نفسه.

ولكن للأسف الآباء الحكماء قليلون؛ ولذلك تبرز أيام الطفولة بروزًا مؤلمًا عند جميع المرضى. والطبيب المعالج يحاول أن يثير عند المريض ذكرياتها، فنحن نعيش في مجتمع كثير الصعوبات، فإذا اصطدمنا بصعوبة ونحن في سن العشرين أو الثلاثين مثلًا فإننا نثير، من حيث لا ندري صعوبة أخرى مماثلة لها اصطدمنا بها أيام الطفولة فيكون الخوف؛ أي خوف الأطفال المرعب، مع أننا قد نكون في سن العشرين أو الثلاثين، ومع هذا

الخوف لا ندري أصله أو مأتاه.

إن سلوكنا العام في المجتمع ينبعث من عواطفنا، ولكن عندما نكون أصحاء سويين نكيف هذه العواطف ونراقبها ونوجهها.

وهناك عواطف كامنة في النفس، معظمها من أيام الطفولة تحركنا نحو اتجاهات وتثير فينا انفعالات يعجز العقل أحيانًا عن التسلط عليها وعندئذٍ يحدث المرض؛ أي عواطف وانفعالات بلا عقل، فنحس خوفًا أو قلقًا أو رغبة في الانتحار أو اشمئزازًا أو شذوذًا جنسيًّا أو غَيرة لا تُطاق، أو نحو ذلك.

وإذا كانت هذه الانفعالات والعواطف قوية طاغية فإننا نفر إلى راحة السكر بالخمر، وأحيانًا قد ننتهي منها بأن نلجأ إلى الجنون؛ إذ هو الراحة الكبرى التي تطرد الهموم نهائيًّا، ولكنها راحة الموت النفسي.

كيف نعالج هذه الأحوال؟ للأطباء النفسيين علاجان: أحدهما سريع سطحي، وهو «التنويم النفسي» الذي لا يزيد على أن يكون إيحاء مركزًا، كأن نوحي للمريض الخائف بأنه ليس خائفًا؛ إي إنه شجاع جريء، والنتيجة هنا سريعة ولكنها غير ثابتة؛ إذ قد يعود هذا الخوف كما كان أو بصورة أخرى.

والعلاج الثاني هو «التحليل النفسي»، وهو أسلوب بطيء النتيجة، ولكن الشفاء يثبت، وهو يستهلك من الوقت والمال شيئًا كثيرًا؛ ولذلك لا يستطيعه سوى الأثرياء أو المتوسطين الميسورين. والنظرية التي يقوم عليها

التحليل النفسي أن هناك عواطف مختبئة أو مكظومة لا يعرفها المريض نفسه، وأننا نستطيع أن نثيرها بالحديث معه حتى يتذكرها ويعرف أسبابها وظروفها، وهو متى عرف الأسباب والظروف شُفي؛ لأنه يسلط عقله على ما كان قد نسيه من هذه العواطف والإحساسات والانفعالات.

وعندي أن لكلمات اللغة أكبر قيمة في التحليل النفسي؛ لأننا نرفع بها المريض إلى مستوى جديد من الحكمة والفلسفة ونكسبه بصيرة في الحياة، بل نحن أحيانًا نجعله يقف موقفًا جديدًا من الحياة فنغيِّر شخصيته ونكاد نحيله إنسانًا آخر غير ما كان يعرف به نفسه.

التحليل النفسي هو: كيف نجعل المريض يعالج نفسه بعد أن عرف داءه الدفين؟ كيف نجعله حكيمًا يجابه صعوبات الدنيا، في ضوء ما لقيه من صعوبات الطفولة، ثم صعوبات المجتمع، كما لو كان فيلسوفًا؟

وإذن مَن هو الشخص الجدير بمعالجة الأمراض النفسية.

أرجو أن أصرح، في وجه المعارضة المنتظرة، بأني رجل مادي مائة في المائة، وأن كل ما نسميه مرضًا نفسيًّا إنما يعود إلى تغيرات داخل أجسامنا؛ أي إلى مادة، ولكننا نجهل هذه التغيرات في الوقت الحاضر، كما نجهل الأسباب الجسمية لها. واعتقادي أن هذه الأسباب سوف تُعرف بعد عشرين أو ثلاثين سنة.

بل نحن نبصر من الآن بعض هذه الأسباب؛ فإن صدمة الخوف قد تحدث التهابات في الجلد أو قرحة في القناة الهضمية أو إسهالا حادًّا أو

المرض السكري أو ضغطًا عاليًا في الدم. ومعنى هذا أن هناك كيمياء يعرفها الجسم وقت المرض النفسي، وعندما نفهم هذه الكيمياء سنفهم أيضًا حركة النفس في الجسم.

ولكن إلى أن نصل إلى هذه التفسيرات الجسمية نحتاج إلى العلاجات النفسية؛ أي التنويم النفسي والتحليل النفسي ثم التأليف النفسي، وأقل ما يُقال هنا أننا وجدنا الشفاء عند استعمالها.

إن الأمراض النفسية أو العقلية إنما تنشأ من العلاقات العائلية في السنوات الأربع أو الخمس الأولى من أعمارنا؛ أي كيف عاملنا أبوانا وإخواننا والخدم، وماذا كانت إحساساتنا وانفعالاتنا نحوهم، وهل وجدنا عندهم الحب أو الكراهية والعناية أو الإهمال والطمأنينة أو الخوف، فإن كل هذه العواطف سيتردد صداها بعد عشرين أو ثلاثين سنة أو أكثر.

والأمراض النفسية تنشأ أيضًا من علاقاتنا الاجتماعية؛ أي مقدار الطموح الذي يبعثنا على السعي، ومقدار الكظوم التي نلقاها للتأخر في الزواج أو التخلف عن النجاح. وما هي الاصطدامات الاجتماعية التي تصادفنا ... إلخ.

إن المرض النفسي أو العقلي هو مرض العلاقات العائلية والاجتماعية، ويمكن لذلك أن نسمي الأمراض النفسية أمراضًا اجتماعية.

أما المرض الجسمي فهو مرض البكتريا والفيروس ونقص الفيتامينات والأملاح.

قد يقول لي هنا أحد أطباء الأجسام: لا تنسَ الغدد الصماء.

نعم، لا أنساها ولكننا لا نعرف عنها كثيرًا، وقصارى ما وصلنا إليه أننا خدشنا سطوحها، وإلى أن نعرفها سيبقى التنويم والتحليل معتمدينا الوحيدين في علاج النفوس المشبوهة.

وإذن مَن يمارس الطب النفسي؟

يمارسه أي إنسان قد درس الطب النفسي، ولا عبرة بأن يكون قد درس قبل ذلك طب الأجسام أو علم الاجتماع، أو الفلسفة، أو الآداب؛ فإنه يجب قبل كل شيء أن يكون قد درس علم النفس؛ أي السيكلوجية، واختص منها بفرع العلاج النفسي.

وفرويد نفسه، أبو التحليل النفسي، هو الذي أوصانا بذلك.

وأطباء النفس في الولايات المتحدة قد يكونون أطباء جسم أو لا يكونون، وكذلك الحال في إنجلترا. ولكن يجب وجوبًا قاطعًا على مَن يعالج بالتحليل أو التنويم أن يكون على دراية وعلم بفنه.

وإذا كنا نخشى أن يتفشى بيننا الدجالون، فإن من السهل أن نتوقى ذلك بأن نطالب جامعاتنا بتخصيص دراسات للمعالجة النفسية، يحصل دارسوها بعد المدة المقررة للدراسة على دبلومات ترخِّص لهم هذه المعالجة.

نحن نفكر بأفواهنا

هذا مقال في الفلسفة، أو في السيكلوجية – إذا شئت – ولكنه مع ذلك ليس ألغازًا؛ لأني واثق أن كل مَن يقرأه سيفهمه.

وعنوان المقال «نحن نفكر بأفواهنا» قد نقلناه عن تريستان نازارا، ومعناه أننا نفكر بالكلمات التي تنطق بها ألسنتنا، وإذا لم تكن لنا كلمات نفكِّر بها فإننا عندئذٍ لن نستطيع التفكير إلا بمقدار ما يفكِّر الثور أو الجمل.

فقد انتهى المفكرون المتعمقون إلى أن الناس والأشياء والطبيعة والكون ليس لها أي معنى أو مغزى إلا في وجداننا وكلماتنا.

والمعنى من عبارة «وجداننا» هو كيف أجد نفسي في هذه الأشياء؟!

ما هي صلتي بها؟ ما قيمتها عندي؟ ما هي أبعادي منها أو أبعادها مني؟ كيف أفهمها؟

الاعتقاد العام بين الناس أننا نعبِّر عن أفكارنا بالكلمات، كأن اللغة وسيلة للتعبير عن التفكير.

ولكن اللغة أكبر من ذلك؛ فإنها عند كثير من الناس كل التفكير الذي يفكرونه، وعندنا جميعًا هي التي تكيف التفكير وتكسبه طرازه وشكله، بل أحيانًا توجده.

ونمونا الفكري وتطوره هما نمو اللغة وتطورها.

ونحن نعيّن سلوكنا مع الناس في صور أخلاقية، مثل المروءة، الإنسانية، الحب، البغض، الشماتة، وهي جميعها صور تثير عواطفنا وتوجهنا وتكيف إحساسنا وتصرفنا، وإذا فقدنا هذه الكلمات فإننا نفقد أيضًا هذه العواطف والإحساسات ولا يبقى إلا مقدار ما يجد ثور أو جمل منها.

وكذلك الصور الذهنية، مثل السياسة، الدبلوماسية، الثقافة، التطور، العلم، فإننا ما كنا لنجد هذه الصور في أذهاننا لولا هذه الكلمات.

إننا نقول: أمس وغد، ورجل شهم ورجل نذل، وحنان الأم وعقوق الابن، وجميع هذه المعاني نفقدها لولا هذه الكلمات التي تعينها وتربط أذهاننا بها.

بل إن للكلمات أكثر من التعيين والربط؛ إذ هي تصوغ وتكيِّف، بل هي تستحدث في نفوسنا عواطف وعادات عاطفية ما كنا نجدها لولاها؛ فإن كتَّاب القصص عندنا قد جعلوا عاطفة الحب شيئًا مألوفًا، بل هم صاغوا أسلوب الحب، وذلك مما ألفوا من هذه القصص التي شرحوا فيها، بكلمات معينة، هذا الأسلوب.

وقد نعترض بأن الحب كان موجودًا من تأليف القصص، وهذا صحيح، وإن يكن وجوده وقتئذٍ شيئًا يكاد يكون شاذًّا مخجلًا. وكلمة الحب كانت من كلماتنا قبل تأليف القصص العصرية، ولكن الكلمة

شاعت في أيامنا وأثارت عاطفة كانت راكدة كامنة، كما عينت لنا هذه القصص صيغة الحب كيف يكون وكيف يسلك المحبان.

وقد سبق لي أن قلت إن كلمات الدم والعرض والثأر قد عينت أسلوبًا من الاغتيال والقتل في بعض مديريات الصعيد الأعلى، وإن جرائم القتل والاغتيال هذه كان يمكن أن تنقص، بل تزول، لو أن هذه الكلمات كانت قد مُحيت من لغة السكان في قنا وسوهاج.

وهناك مَن يزعمون أن اللغة مرآة للأفكار، ولكن الواقع أنها أكبر وأخطر من ذلك؛ إذ هي من ناحيةٍ صياغةٌ للأفكار، وهي من ناحيةٍ أخرى تفسيرٌ للأفكار. فكلمة الحب الآن تُفسِّر عاطفة كانت موجودة قبل مائة أو ألف سنة في مصر، ولكن التفسير تغيَّر؛ ولذلك تغيَّر أسلوب الحب، والفضل في هذا لكتَّاب القصص.

أسلوبنا في التفكير هو في صميمه أسلوبنا في التعبير؛ لأننا لن نستطيع أن نفكر بأكثر مما تعطينا الكلمات من معانٍ، وعلى قدر النقص في معاني الكلمات يكون النقص في تفكيرنا.

كيف نفكر؟

عندما نتأمل طفلًا لم يتعلم اللغة بعدُ نجد أنه يعبر (أي يفكر) بأصوات وحركات نفهم منها حالته، فنسمع صوتًا يدل على حركة في حنجرته ونجد تعبيرًا في وجهه ورفسات من قدميه وإشارات بيديه.

هذه هي لغتنا الأولى؛ أي هذا هو تفكيرنا الأول، فإذا كبرنا تكلمنا؛ أي اقتصرنا على حركتي الحنجرة واللسان وتركنا حركات الأيدي والأقدام، ولكن حركاتنا اللغوية هذه نتعلمها من الكبار ولا نخترعها؛ ولذلك على قدر ما في الكلمات التي ننطق بها، بحركات اللسان والحنجرة، يكون تفكيرنا.

وبهذه الحركات، بهذه الكلمات، قد أصبحت لنا ثقافة؛ أي نحو عشرة آلاف أو عشرين ألف كلمة (حركة في الحنجرة واللسان) صرنا نفهم بها الدنيا والحياة، ولكن هذه الكلمات أيضًا قد حبستنا في نطاق لا نخرج منه؛ إذ صاغت لنا الفكرة وبعثت لنا العاطفة وكيَّفت الاثنتين.

ولذلك قال وبتجشتين: «حدود لغتي هي حدود عالمي.»

أنا أتكلم لثلاث غايات:الأولى: أن أتفاهم مع الآخرين بالحديث.

الثانية: أن أتفاهم مع نفسي حين أخلو وأقول إني أفكر.والحقيقة أنني أستحضر الكلمات التي تعيِّن تفكيري وتصوغ إحساسي.

والغاية الثالثة: هي أن اللغة تعيِّن موقفي من الناس والأشياء والدنيا والكون، وهي هنا فلسفة وعلم وأدب وفلكيات وطبيعيات ... إلخ. واللغة هنا تزيد وجداني؛ أي كيف أجد نفسي في كل هذه الأشياء؛ أي كيف يزداد وجودي في إحساسي وفكري وتعقلي.

إن جوليان هكسلي يقول: «إن تطور الإنسان قد وقف بسبب

اللغة»، ويكاد يكون صادقًا.

ذلك أن الزواحف حين شرع بعضها يجرِّب الوثوب في الهواء؛ كي يأكل الفراش الطائر صار جلدها حول أجسامها ينبت ريشًا فصارت طيورًا.

ولكننا نحن لن نطير؛ لأننا بما عندنا من ثقافة (أي كلمات) قد عرفنا كيف نطير بالحديد والنار. فالثقافة البشرية؛ أي اللغة البشرية، قد قامت مقام التطور العضوي في أجسامنا، فلن تكون لنا أجنحة وكذلك لن نستطيع الإقامة في البحار كما فعلت القياطس والسلاحف بأنواعها؛ لأننا بثقافتنا الخاصة بصنع السفن قد استغنينا عن ذلك.

فالارتقاء الثقافي؛ أي اللغوي، قد عاق وسوف يعوق التطور العضوي، ولكني أعتقد مع ذلك أن كبر المخ في الإنسان يعود إلى اللغة؛ لأن هذا العضو احتاج إلى أن يكبر كي يحتفظ بالصور العديدة التي أوجدتها الكلمات: فالتطور الجسمي قد أُوقف ولكن التطور المخي لن يقف.

من أحسن ما في سارتر، صاحب الوجودية، عنايته باللغة ومواصلة البحث في ممكناتها، فهو يقول إن صناعة الكاتب هي الكلمات؛ أي الأفكار، وهو أيضًا يقول: «أنا لا أثق بما لا يمكن التعبير عنه.» وهو يعني أننا ما دمنا نعجز عن التعبير فإننا نعجز عن التفكير.

ولكن أحسن ما قاله سارتر عن اللغة هو هذه الكلمات التالية التي

أضعها أنا في صيغة السؤال: «هل نحن نتغير ثم نجر اللغة خلفنا ونغيرها، أم إننا نحس وجدانًا لغويًّا جديدًا يجعلنا نرى الدنيا على غير ما كانت عليه قبلًا فنتغير؟»

واعتقادي أن هذا هو سؤال القرن العشرين في الفلسفة، وإجابتي عليه، وهي إجابة تجريبية وقتية، هي أن التفاعل اللغوي من المؤلفين العديدين يضفي على الكلمات القديمة معاني جديدة، ثم تعود هذه الكلمات بمعانيها الجديدة فتُحدِث طرزًا جديدة في الفكر والعاطفة، فيكون التجدد الاجتماعي أو الثقافي.

وبكلمة أخرى نحن نجر اللغة، وهي أيضًا تجرُّنا.

ولكن إذا سلمنا بهذا فإننا نحتاج إلى أن نعالج حياتنا ومجتمعنا وفلسفتنا وأخلاقنا من الكلمات المريضة التي تُحدِث لنا طرزًا مريضة من الأخلاق والاجتماع والحياة والفلسفة.

اللغة أعظم أدواتنا الاجتماعية

أعتقد أن أعظم ما سوف يشغل الفلاسفة في السنين القريبة القادمة هو اللغة، وأن الكتب ستؤلَّف بالمئات عن قيمة الكلمات في الأخلاق والتوجيه الاجتماعي والتفكير المنظم.

وأعتقد أيضًا أن تطورنا القادم الذي سوف نسيطر عليه ولا نتركه للطبيعة، سيتناول اللغة باعتبارها الوسط الاجتماعي الأول والأخطر في حياة الإنسان، وأن الوقت ليس بعيدًا حين تسن الحكومات قوانين تلغي بها بعض الكلمات التي تبعث على الجريمة والزيغ الأخلاقي باعتبار أن هذه الكلمات هي علة الجريمة أو الزيغ.

وقد التفت السيكلوجيون إلى اللغة. ولكنهم لم يستوفوا كل ما فيها من خطورة اجتماعية وذهنية وأخلاقية.

وأنا هنا أومئ أكثر مما أعبر؛ وذلك كي أستوعب في إيجاز بدلًا من أن أتخصص في إسهاب.

وأول ما أومئ إليه أن الأستاذ محمود تيمور ألَّف درامة بلغتين إحداهما العربية الفصحى، والثانية العربية العامية، وجمعهما في مجلد واحد كما لو كانت إحداهما ترجمة للأخرى.

وهو بهذا العمل قد كشف عن مرض اجتماعي أصيل في بيئتنا

العربية؛ لأن كلمات اللغة أفكار، وحين تكون لنا كلمتان فإن معنى هذا أن لنا فكرتين؛ أي إن لنا طبقتين لكل منهما أفكارها وأخلاقها وأسلوب عيشها.

وهذا دمار في مجتمعنا، ويجب أن نحاكم المسئولين عن هذا الدمار الفكري والأخلاقي والاجتماعي، كما يجب أن نبادر بعلاجه.

والمسئولون هنا هم أولئك الذين لا يزالون ينأون عن الشعب ويربئون بالأدب أن يكون شعبيًّا؛ لأن الشعب عندهم هو العامة، وهم من الخاصة، فيجب أن تكون لهم لغة خاصة وأن يكون للشعب لغة العامة.

نحن المصريين عند هؤلاء أمتان: أمة متعلمة تتذوق الآداب والفنون ولها لغة راقية تؤدي التعبير عنها، وأمة أخرى جاهلة جافة لا تتذوق الآداب والفنون ويجب لذلك أن نكتب لها، إذا كتبنا، بلغتنا العامية الجاهلة الجافة.

فأي منطق هذا يا ناس؟ وفي أي بلد، غير مصر، توجد مثل هذه الظاهرة؟

أليس الأحرى بالأديب أن يكتب بالكلمة السهلة والأسلوب الميسر اللذين يفهمهما الشعب؟ وأليس هدف الديموقراطية في الحكم يجب أن يقابله هدف الأديب في الديمقراطية في الأدب؟

إن حكومتنا تسن قوانينها بلغة واحدة للشعب كله، وهي لم ترَ حاجة

قط لأن تترجمها إلى اللغة العامية كما فعل الأستاذ تيمور في قصته، فلماذا لا نكتب بلغة ميسرة مفهومة للشعب كله؟

إننا في داء، فلنسأل مَن هم أصل الداء، ولنحاكمهم، ثم يكون الدواء. جاء في مجلة «التربية الحديثة» التي تصدرها الجامعة الأمريكية بالقاهرة هذه الكلمات المنيرة:أول هذه التطورات هو التحول من اعتبار النفس البشرية مخلوقًا مستقلًّا منفصلًا منعزلًا، إلى اعتباره كائنًا اجتماعيًّا قد كونته صلاته الاجتماعية وخصته بهذه الوظيفة. والثاني هو التحول من اعتباره كائنًا ثابتًا تام التكوين إلى اعتباره كائنًا ينمو ويتحرك ويتفاعل ويتطور. والثالث هو التحول من النظرة الساذجة التي تعتبر اللغة وسيلة مستقلة لنقل المعاني إلى اعتبارها وظيفة من وظائف التكوين والتفاعل الاجتماعي.

ولو كنت وزيرًا للمعارف لأصدرت «أمرًا يوميًّا» لجميع المعلمين في مصر به هذه الكلمات العظيمة التي كتبتها هذه المجلة:

(١) ليس الإنسان مستقلًّا كما يقول سارتر، وإنما هو مكوَّن ومؤلف بصلاته الاجتماعية.

(٢) الإنسان ليس كائنًا ثابتًا وإنما هو متطور متفاعل.

(٣) ليست اللغة لنقل المعاني فقط، وإنما هي أيضًا للتفاعل الاجتماعي.

كما نستعمل نحن الكلمات ونتسلط عليها كذلك الكلمات

تستعملنا وتتسلط علينا، بل هي تستعملنا أكثر مما نستعملها نحن.

نحن لا نفكِّر بالأفكار وإنما نفكر بالكلمات.

ونحن لا نخترع كلمات اللغة، بل نرثها من مجتمعنا.

ونحن مقيَّدون في تفكيرنا، وموجَّهون به، بما تحمل هذه الكلمات من المعاني.

وصحيح أننا أحيانًا نخترع الكلمات، كما هو الشأن في العلوم والفنون، ولكن هذا قليل جدًّا بالمقارنة إلى ما نرث، ثم نحن نخترع الكلمات كي نعيِّن بها ونوضح بها المعاني المضطربة في أذهاننا.

لأن الفكرة تبقى مضطربة غامضة مشتبهة حتى نصوغها في كلمة، فتتعين لها حدود ويتضح لها معنى.

ولن يستطيع أحد أن يفكِّر بلا كلمات إلا إذا استعان على ذلك بعلامات الخرس ... ولذلك يُسمى علم اللغة الجديد علم العلامات؛ أي السيمائية؛ لأن كلمة سيما تعني علامة.

لقد كبرت عقولنا باللغة ... بالكلمات.

والفرق الأساسي بيننا وبين الشمبنزي، ليس أن مخَّنا أكبر من مخه، بل لأننا ننطق ولنا لغة، وهو أخرس ليست له لغة.

بل أعتقد أن مخنا أكبر من أمخاخ الشمبنزي وغيره من الحيوانات؛ لأن

لنا لغة وليست لها لغة.

المخ البشري كبير نتيجة اللغة، وليس العكس.

فكما أن عنق الجمل طالت كي يصل إلى العشب كذلك كبر مخنا كي يحتوي معاني الكلمات؛ إذ ما الذي كان يبعث على كبر المخ في الإنسان سوى حاجته إلى استيعاب وتسجيل وتقليب المعاني؟

الوظيفة تسبق العضو.

وظيفة التعبير – اللغة – أوجدت المخ.

وتطورنا القادم سوف يكون لغويًّا مخيًّا؛ أي إن المخ سيكبر.

اللغة أعظم أدواتنا الاجتماعية، وهي أخطر في حياتنا من جميع المؤسسات الأخرى، مثل العائلة أو الدولة أو القوة المادية أو أي شيء آخر.

بل ماذا أقول؟

إن جميع هذه الأشياء، العائلة والدولة والقوة المادية، هي ثمرة اللغة لقد اخترعنا كلمات العائلة والبرلمان والمجتمع؛ كي نوجد الأفكار التي تدل عليها.

وما يعانيه الشعب من قلق اجتماعي منبّه بشأن الطلاق والزواج وتعدد الزوجات وتربية الأطفال إنما يرجع إلى أن كلمة «عائلة» قد اندست

في وجدانه وصارت جزءًا من كيانه النفسي، وهي من مخترعاتنا؛ ولذلك لا تجد لها أصلًا في أي معجم عربي.

ولكن مع القيمة العظمى للغة؛ أي للكلمات، فإننا يجب أن نتنبه إلى شيئين هما عيبان عظيمان:

(١) الأول أننا أحيانًا، بل كثيرًا، نسمي الشيء ونخترع الكلمة لا لتدل على حقيقة هذا الشيء، وإنما لتدل على إحساسنا نحن نحوه وما نكسبه من هذا الشيء من قيمة فيما يتعلق بحياتنا؛ ولهذا السبب كثيرًا ما نتعرف إلى الأشياء بالعقيدة وليس بالمعرفة، فالبياض طهارة، والبومة شؤم، وموجات الضوء ألوان ... إلخ.

(٢) والثاني أننا حين نتأمل الأشياء في هذه الدنيا أو هذا الكون، إنما نفعل ذلك ونحن نجمد هذه الأشياء؛ أي نقفها عن تدفقها، وبهذا التجميد تتغير حقيقتها في عقولنا.

ولا يمكن أن تدل الكلمات؛ أي الأسماء، على أشياء إلا بعد تجميد هذه الأشياء.

ولذلك نحن لا نفهم الأشياء على حقيقتها؛ أي على تدفقها وتطورها، ولكننا نفهمها ثابتة مجمدة على غير حقيقتها.

وعلم السمائية هو العلم الجديد الذي يحاول الكشف عن الأخطاء التي نقع فيها؛ لأن الكلمات لا تنقل إلينا الصورة الحقيقية للأشياء.

كل شيء في هذا الكون في تدفق.

وكي تكون اللغة خادمة أمينة للمجتمع والإنسان يجب أن تكون هي أيضًا في تدفق؛ أي في تطور.

للكاتب الفرنسي لافارِج رسالة عنوانها «اللغة والثورة» وصف فيها التطورات التي سرت في اللغة الفرنسية فيما بين ١٧٨٩ و١٧٩٤ أيام الثورة.

ذلك أنه اختُرِعت كلمات جديدة لتأدية المعاني الجديدة في الثورة الفرنسية الكبرى، كما أن كلمات قديمة كانت تعبِّر عن النظام الإقطاعي قد أُميتت.

وفي الثورات تظهر الكلمات الجديدة على قدر التطورات.

واللغة هي أداة الإنتاج الذهني والتغيرات الاجتماعية.

اللغة هي الوجدان الفكري للأمة، ونحن نبقى في ذهول فكري إلى أن نعين أفكارنا بالكلمات.

ألا تعرف أنه عندما يضطرب أحد الشبان وتختلط عليه إحساساته وأفكاره ويجد الشبهات والمخاوف نطلب إليه أن يعين كل ذلك باللغة؟ أي نطلب إليه أن يكتب ويوضح بالكلمات جميع إحساساته وأفكاره، وقد يكون في عمله هذا كل الدواء الذي يحتاجه أو معظمه.

كذلك نحن في اضطراب الثورات نحتاج إلى مَن يعيِّن لنا، باللغة، اتجاهاتنا ويقشع عنا ضباب المخاوف والاشتباهات.

أين لافارج المصري الذي يؤلِّف لنا رسالة عن «اللغة والثورة»؟

ما دام هناك تغير وتطور قد أحدثته الثورة فيجب أن تكون هناك كلمات جديدة توجِّه وتسجِّل وتنير.

في الخمسين أو الستين سنة الماضية اخترعنا كلمات غيَّرت مجتمعنا وأخلاقنا.

وقد أشرت إلى كلمة «عائلة» التي نقلنا بها معنًى أوروبيًّا يقلقل مجتمعنا ويجعلنا نتحدث ونطالب بالإصلاح في شئون الزواج والطلاق والنفقة وتعدد الزوجات وحضانة الأولاد ... إلخ.

إنها كلمة تقلقنا قلقًا مقدسًا.

وإلى جنب هذه الكلمة اخترعنا كلمات: مجتمع، وصحافة، وتطور، وحكومة، ونقابة، وثقافة، واستقلال، وبرلمان، وعلم، وشخصية، ووجدان... إلخ.

وقد سبق لقاسم أمين أن أوجد كلمات «سفور» و«حرية المرأة» فصارت الكلمات حقائق.

وبعض هذه الكلمات عربي قديم ولكننا أكسبناه معاني جديدة

وبعضها مخترَع، وقد أكسبتنا هذه الكلمات حياة ذهنية جديدة وأخلاقًا جديدة؛ أي أعطتنا «وجهة نظر» جديدة للكون حتى لأكاد أقول إنها زادت ذكاءنا.

ومهمتنا – نحن المفكرين والأدباء والعلماء – اختراع كلمات جديدة تحمل شحنات اجتماعية عن النهضة والتمدن والفكر تجعل شعبنا يحيا الحياة العصرية، ويكتسب «وجهة نظر» جديدة للإنسان والمجتمع والكون.

الكتب العظيمة التي تربينا

لا ينقص عدد الخطابات التي وصلت إليَّ منذ أقل من عام بشأن الكتب التي يجب أن يقرأها شبابنا ويستنيروا بها عن مائة خطاب.

وجميع هؤلاء المراسلين شبان؛ فإنهم جميعًا يصفون تعليمهم السابق، ثم يبرزون ما يحسون به من نقص، ويسألون عن العلاج. وهم جميعًا يذكرون أعمارهم كأنهم يرجون أن يهتدوا إلى برنامج ثقافي للسنين القادمة من حياتهم.

وهذه الحال تدل على زعزعة نفسية قد أحدثت قلقًا وتساؤلًا واستطلاعًا. ومصدر هذه الزعزعة هو هذا التناقض القائم بين أسلوب العيش الذي نتبعه في مجتمعنا وبين ما تعلمناه وأخذنا به من عادات ذهنية قد أورثتنا إياها ثقافات كثيرًا ما تُحدِث لنا الحرج والبلبلة.

ومن هنا هذه الرغبة الحادة في بعض الشبان حين يسألون: ماذا نقرأ؟ أي كيف نستقر ونهدأ؟ كيف نجعل عاداتنا الذهنية توائم أسلوب عيشنا؟

وفي كل إنسان سليم النفس طاقة تطورية، وهي تحتاج إلى الغذاء المنظم بالكتب العظيمة والاختبارات العالية ومباشرة الطبيعة بالسؤال الحر والجواب الحر والاستعداد للتغير والارتقاء.

ولكن النفس البشرية كثيرًا ما تمرض فتجمد وتجحد التطور؛ أي تجحد الحياة وتنتحر.

وحال شبابنا في مصر، في زعزعتهم وبلبلتهم، لا تختلف كثيرًا عن حال الشباب في أمريكا، وإن كان المستوى يختلف.

ففي مصر نجد حضارة غربية تطورية تكتسح أو تسود حضارتنا الموروثة أفكارًا وأشياء، كما نجد معارف تصطدم بعقائد فنتبلبل، وأحيانًا نحتمي من هذا الاكتساح أو السيادة بأن نختصم الغربيين فندعو إلى القناعة وننكمش في محارنا أو قواقعنا، أو نكبر من شأن حضارتنا، وهي الفلاحة، فنقول إنها روحية، أو نقول إننا شرقيون وهم غربيون، وكأننا قد فصلنا النوع البشري قسمين.

وفي أمريكا يجد الشباب مشكلة قريبة في موقفها من مشكلتنا، ولكنها لا تطابقها؛ فهناك يبدو التناقض واضحًا بين العيش والفكر، وقد لا يدري القارئ المصري أن الأمريكيين يعيشون من حيث المواد والإنتاج، في القرن الحادي والعشرين؛ فإن الأمريكي —— في المتوسط —— يتسلط على قوة لا تنقص عن خمسين أو ستين حصانًا يوجهها للإنتاج المادي في بناء منزل أو طائرة أو سيارة أو إنتاج زراعي أو صناعي.

ولكنه من حيث الثقافة لا يختلف عن غيره في أقطار العالم الأخرى. ومن هنا هذا التناقض الذي يحدث عنده البلبلة والزعزعة والتساؤل: ماذا أقرأ كي أفهم وأهدأ؟ أي ماذا أفعل كي أجعل أفكاري تلائم الحضارة التي أعيش فيها؟

ومن هنا أيضًا هذا الاهتمام الذي يقارب الهم باختيار الكتب في

الولايات المتحدة. فقبل أكثر من ستين سنة أوصى الدكتور إليوت بطبع مائة مجلد زعم أنها تكفل للإنسان العصري بأن يكون مثقفًا، وبعض هذه المجلدات يحتوي على عدة كتب.

وقبل نحو خمس عشرة سنة نبعت في جامعة شيكاغو ظاهرة ثقافية جديدة في شخص الأستاذ هتشنس، فإنه جعل «الكتاب» أساس المناقشة الحرة بغية التثقيف العالي، ونجح في ذلك نجاحًا كبيرًا حمل الجامعات الأخرى على اتباع خطته، ووضع هو وأعوانه أسماء لنحو مائة كتاب قيل إنها تكفل للقارئ أن يكون إنسانًا راشدًا ناضج الذهن، ولكن خطة هتشنس كانت تحتوي نظرة ونبرة.

فأما النظرة فهي قيمة الكتاب في تخريج الرجل المثقف، وأن الجامعات كانت قد أهملت هذا العامل الأول في التربية الذهنية، فيجب أن تعود إليه.

وأما النبرة فهي كيف ندرس الكتاب؟

ومن هنا كانت المناقشات الحرة بين جماعة من الطلبة يحاولون استخراج العبرة والدلالة من الكتب في الحضارة العصرية، وأسلوب العيش، ونظام المجتمع، واستقلال الذهن وحرية الضمير.

ولكن الحضارة الأمريكية تتغير في موادها وإنتاجها، كيفًا وكمًّا، بسرعة تحتاج إلى إعادة النظر في النظرة والنبرة مرة على الأقل كل عشر سنوات.

والمحقق أن الأمراض النفسية كثيرة في الولايات المتحدة، والذي لا شك فيه أن بعض هذه الكثرة تُعزى إلى التناقض بين الثقافة (أي ما نفكر فيه)، وبين الحضارة (أي ما نعيش عليه من عائلة ومجتمع ومصنع ومزرعة ومكتب).

وهذا الاختلاف الذي يكاد لا ينقطع بين الأمس واليوم في طرق العيش يحمل الأمريكي على أن يبحث عن مراسٍ جديدة غير مراسيه القديمة، وهو ينشدها في «الكتاب».

ماذا يجب أن يقرأ، وأن يعرف، وأن يعتقد؟

وأسوأ ما يلاقيه الشاب الأمريكي أنه يجد أن عقائده تناقض معارفه، وأسوأ من هذا أيضًا أن يقول المشرفون على ثقافته الباحثون عن المراسي: «إن العقيدة أروح ولكن القلق أشرف»، كما هي كلمات برتراند راسل.

أليس هناك، في الولايات المتحدة، من الأسرَّة لمرضى النفس في المستشفيات ما يزيد على الأسرة لمرضى الجسم؟

الشك، القلق، الهم، النيوروز ...

ليس هناك عقائد يرتاحون إليها.

وإذن أين «الكتاب» الذي يقرؤه الشاب حتى لا يحتاج إلى سرير في مستشفى الأمراض العقلية؟ أين الكتاب الذي يصالح بين عقله وقلبه؟

وهنا يثب علينا مشروع جديد، هو محاولة جديدة لإيجاد الطمأنينة الذهنية باختيار الكتب.

ويتقدم إلينا هتشنس الذي كان قد بعث الكتاب في جامعة شيكاغو وتتقدم إلينا هيئة التحرير لأعظم كتاب ظهر في العالم وهو «الموسوعة البريطانية» التي تحوي المعارف البشرية، ويعاونهم جميعهم هيئات وأفراد بغية تعيين الكتب التي يجب أن نقرأها كي نطمئن.

ماذا أقول؟

كي نطمئن أم كي نقلق؟

هل يرضى الرجل المثقف أن ينزل عن قلقه الذي يثير استطلاعه؟ واجتمع هؤلاء جميعًا إلى السنة الماضية واختاروا ٥٤ مجلدًا تحوي ٧٤ مؤلفًا؛ لأن بعض المجلدات يحوي كتابين أو ربما ثلاثة كتب وطُبعت هذه الكتب طبعًا ليس فاخرًا ولكنه متقن؛ لأن الثقافة ليست ترفًا وإنما هي ضرورة، ويبلغ ثمن هذه المجموعة ١٢٠ جنيهًا.

هل هذا كثير؟

إننا نقدِّر سعادتنا بالدخل المالي، فلماذا لا نزيد عليه دخلًا آخر هو الدخل الذهني؟

ارتقاء أذهاننا بالقلق أحيانًا، وبالطمأنينة أحيانًا أخرى، وبزيادة الوجدان والتعقل، وبتربية شخصيتنا حتى نحس أننا في تطور وارتقاء

واستقلال ونضج.

لا، ليس المبلغ كبيرًا على القادرين، ولو كانت هناك حكومات ديمقراطية حقًّا لأتاحت للعاجزين اقتناء هذه الكتب بعُشر هذا الثمن أو بلا ثمن.

إن ثمن «الموسوعة البريطانية» سبعون جنيهًا، وقد اقترحت في كلمة سابقة ترجمتها إلى لغتنا حتى تحدث نهضة أصيلة وحتى يستحيل «الشرق العربي» إلى «الغرب العربي»، ولكن أحدًا لم يقدِّر اقتراحي هذا.

ولنعد إلى المشروع الجديد.

قلت إن الذي يبعث على القلق عند الشاب الأمريكي هو التناقض بين ما يفكر فيه؛ أي ما اكتسب من ثقافة، وبين ما يعيش به؛ أي ما يكتنفه ويلابسه من حضارة.

ولذلك فإن المشروع الجديد يهدف إلى التوفيق بين الثقافة والحضارة فكيف يكون هذا؟

هذه الحضارة الأمريكية تقوم على العلم والصناعة.

وإذن نحن نجد أن من هذه المجموعة ٢٠ مجلدًا فقط في الأدب، و٥٢ مجلدًا في العلم.

وهناك مجلدان اثنان للفهرست، ولكن أي فهرست؟

فهرست الأفكار البشرية، العائلة، الحرب، الحب، المجتمع، الاستعمار، الطب، الكيمياء ... إلخ.

والآن ما هو موقف شبابنا من كل هذا الذي ذكرنا؟

إنهم أيضًا في زعزعة وبلبلة وقلق، وهم يحتاجون إلى أن نذكر لهم المؤلفات التي ينبغي أن يقرءوها كي يجدوا التوفيق الذي يهدِّئ، والمعرفة التي تقلق وتطمئن، والنظرة الفلسفية إلى الكون الذي عينه لنا أينشتين، والنظرة البيولوجية التي وجهنا إليها داروين، والعلم الذي يثير والفلسفة التي تبصر.

أين هي المؤلفات التي ترشدهم إلى كل ذلك في اللغة العربية؟ أين هو غذاء الطاقة التطورية في نفوسهم؟

وجوابي أني لا أعرفه، لا أعرف الكتب العربية العظيمة التي يمكن أن ترشد شبابنا إلى الحياة الصالحة التي يُسعدون بها أنفسهم ويسعدون بها غيرهم.

هل يمكن أحدًا أن يدلني عليها؟

كيف تتعلم العبقرية

يكره عامة الناس التعليلات الطبيعية البسيطة، ويحبون أن يروا معجزة في رجل جاهل يشفي المرض أو رجل أبله يسيل لعابه يهذي بكلمات ويتكهن عن الحظوظ.

وقبل أكثر من عشرين سنة كان يجول حول مقاهي القاهرة صبي أو شاب يضرب سبعة أرقام في سبعة أرقام مثلها ويخرج الحاصل وهو واقف بلا حاجة إلى قلم وورق، وكان عامة الناس يجدون فيه معجزة ويصفونه بأنه عبقري.

إن العبقرية عند هؤلاء معجزة وكأن الشعوب كلها من تراب في عموميتها، ولكنها من ذهب في قلة من الرجال الأفذاذ، فهم يفهمون أكثر ويعرفون أكثر من عامة الشعب، متعلميه وجاهليه.

وتعلُّق الناس بالمعجزات هو علة الدعوى بأن المؤلف أو المخترع أو المكتشف «عبقري» يخالف سائر الناس، وعلة الدعوى أيضًا بأن الأبله يشفي المرضى أو يتكهن بالمستقبل، وهي في أساسها رغبة فيما يخالف المألوف.

بل لقد أُلِّفت الكتب في ماهية العبقرية وتمييزها من النبوغ. والقارئ لهذه الكتب، إذا كان على شيء من الذكاء، يحس بلاغة أو غفلة هؤلاء المؤلفين؛ فإن لومبروز صاحب الرأي السخيف بشأن المجرمين «المولودين»

الذين ورثوا الإجرام أو الميل إلى الإجرام هو نفسه الذي ألَّف: «رجل العبقرية»، وجعله أيضًا وارثًا لهذه القوة الذهنية التي يعتقد عامة الناس أنها معجزة وأنها قمة لن يمكنهم أن يصلوا إليها مهما جهدوا واجتهدوا.

وقد انتهينا من لومبروز بشأن الإجرام وعرفنا، بل أيقنا، أن الوسط الاجتماعي أو الاقتصادي السيئ هو الذي يهيئ للجريمة، ولكننا لم نصل بعدُ إلى القول بأن الوسط الاجتماعي أيضًا هو علة العبقرية، وكما نستطيع أن نعلِّم الصبيان كيف ينشئون مجرمين نشالين مثلًا نستطيع كذلك أن نعلِّمهم كيف ينشئون أذكياء عباقرة.

ألسنا نرى رياضيين يقومون بالمعجزات في العدو والوثب والسباحة وحمل الأثقال والمصارعة؟ فهل أحد منا يعزو قوَّتهم هذه إلى الوراثة؟ أي إلى أنهم ولدوا أقوياء؟

الجواب لا؛ لأننا نعرف أنهم دُربوا حتى وصلوا إلى تفوقهم هذا، وكذلك الشأن في العبقرية؛ فإنها تحيا في وسط معين وتحتاج إلى تربية وتدريب بحيث يستطيع أن يتحمل العبقري ذهنيًّا ما يستطيع أن يتحمل الرياضي جسميًّا.

إذا كانت العبقرية تُورَّث فإننا يجب أن نسلِّم أيضًا بأن الذكاء يُورَّث، وبأن هناك شعوبًا تمتاز بالذكاء وأخرى لا تمتاز به، وعلى هذا الأساس يجب أن نبرِّر الاستعمار؛ إذ هو — في منطق دعاة الوراثة — حكم أمة ممتازة بالذكاء لأمة لا تمتاز به. وللأولى إذن حق استغلال الثانية، أليست هي ممتازة؟

وإذا كانت أسرة تمتاز بالذكاء وأخرى لا تمتاز به، فمن حق الأولى أن تستغل الثانية، وإذن عندنا ما يبرِّر الاستعمار ثم الاستغلال.

ثم هناك بيض وسود، والبيض أذكياء والسود مغفَّلون. وإذن لا يجوز لأحد أن يقول بالمساواة بين الاثنين، هذا حكم الوراثة.

وأنا أُسلِّم بأن فردًا قد يمتاز من آخر بمقدار من الذكاء الموروث، ولكن هذا المقدار ليس علة العبقرية من طرف أو علة الغفلة من طرف آخر، وإنما السبب الأساسي، بل الوحيد، للذكاء الخارق، وللطيبة المفرطة، وللاختراع والاكتشاف، هو الوسط وليس الوراثة، كما أن السبب الأساسي للنبوغ في الجريمة وفي الرياضة هو الوسط؛ أي البيئة التي تحمل على الاهتمام بشأن معين فيكون التفكير فيه والتدريب عليه إلى درجات التفوق.

قبل نحو مائة سنة ألَّف جالتون كتابه «العبقرية الوراثية»، وقد زعم فيه أن الذين حكموا العالم واكتشفوا واخترعوا وقاتلوا ونجحوا في المعارك، إنما ترجع عبقريتهم إلى الوراثة. وبرهان ذلك عنده أننا نجد أبناء عمومتهم وخئولتهم عباقرة مثلهم مما يدل على أن للعبقرية «دماء» تجري في عروق أفراد الأسرة.

ولم أحتج إلى كثير من التفكير كي أسأل: «ولماذا لا نقول إن واحدًا منهم وصل إلى القمة ثم صار يساعد الآخرين بالمحاباة أو بالتربية على الوصول أيضًا مثله؟»

ألسنا نعرف نحن في مصر كيف أن أبناء العمومة والخئولة، مَن قَرُب منهم ومَن بَعُد، كانوا يصلون إلى القمم في العهود الماضية عندما كان واحد منهم وزيرًا أو وكيل وزارة أو نحو ذلك؟

وهل يمكن أن نقول إن تفوق العنصر التركي في المناصب العالية العامة قرابة ١٥٠ سنة في مصر على العنصر المصري برهان على عبقرية تركية؟

الجواب لا. وإذن ما هو السبب؟

السبب هو البيئة؛ أي الوسط.

وقبل نحو ستين سنة ألَّف رجل إنكليزي، كان قد تألمن، كتابًا عن تفوق الجرمان بالوراثة على سائر شعوب العالم، وهو هراء ضخم.

ومثل هذا الهراء الضخم نسمعه من الكتَّاب الجهلة عن تفوق الرجل على المرأة في الذكاء. وقد يضحك القارئ حين يعرف أن بعض البراهين على هذا التفوق أن الرجل يخترع ويكتشف، أما المرأة فلا!

وكيف تخترع المرأة وتكتشف وهي تطبخ البامية والبطاطس، وتمسح البيت كل يوم وتغسل الأطفال كل ساعة؟! هل هذه الأعمال تبعث على الاختراع والاكتشاف؟

إن الرَّجل يكتشف ويخترع؛ لأنه يحيا في بيئة الصناعة والتجارة والعلم والفن والهندسة والطب، فالمجال؛ أي الوسط، يبعث على الاختراع والاكتشاف.

بل الوسط يغيِّر الطبيعة الموروثة.

فإنه يحدث في الهند أن تخطف ذئبة طفلة بشرية، ثم بدلًا من أن تأكلها تربيها ثم تصير لها أمًّا رحيمة، وتنشأ الطفلة مع الذئاب، فلا تمشي على قدميها وإنما على يديها وقدميها مثل الذئبة، وتستيقظ عند الغروب وتبقى ساعية تسرق الفراخ وتعوي طول الليل، وتأكلها نيئة بأمعائها وتنام في النهار.

وهذه الحوادث مؤكدة، وقد قرأنا عنها كثيرًا ولا مجال للشك فيها فالوسط هنا، وسط الذئاب، جعل الطبيعة البشرية طبيعة ذئبية؛ أي غيرها.

هناك أوساط بشرية تعمل للتجمد الذهني، كالوسط الزراعي مثلًا؛ فإن ميدان الاكتشاف والاختراع، بل ميدان التفكير فيه يكاد يكون معدومًا، ولذلك تجد التسليم التام للقدر والحظ.

أذكر أني سألت أحد الفلاحين عن علة وفاة أحد أقربائه، فضحك مني وقال يهزأ بي: كيف مات؟ لماذا مات؟ مات. مكتوب عليه وعلينا الموت، مقدر علينا.

ومثل هذا الموقف من القدر لا يدعو إلى بحث الموت؛ أي لا يدعو إلى الاكتشاف.

ولكن ساكن المدينة يتذكى ويسأل ويستفهم ولا يسلِّم للقدر. الوسط الزراعي أوجد النظام الإقطاعي الجامد، والتسليم للقدر، وكراهة التغير أو

التطور، واحترام التقاليد، وسائر المجموعة من الأخلاق الإقطاعية التي لا يزال أكثرها – بحكم الوسط الزراعي – فاشيًا في بلادنا.

ولكن الوسط المدني، وسط المدينة والمصنع والمتجر والجريدة اليومية والمناظر السينمائية والكتب ونحوها، هذا الوسط جعل ساكن المدينة أذكى من ساكن الريف، أو بالأحرى زاد ذكاؤه حدة ويقظة، في حين جعل الوسط الزراعي ذكاء الفلاح في نوم وغفلة، ومن هنا تفوق أوروبا الصناعية على أقطار الشرق الزراعية.

وهناك ظروف تزيد ذكاءنا حدة وتوقظنا وتقلقنا، فنسأل ونستفهم، ثم نفهم.

فالأم التي لا تبدي ذكاء بشأن أي موضوع تفهم من حركات طفلها وإيماءاته الصغيرة ما لا نفهمه نحن؛ لأنها قلقة عليه مهتمة به، فذكاؤها هنا يقظ بالقلق والاهتمام.

وبكلمة أخرى نقول إن الدرس الأول في «كيف نتعلم العبقرية» هو الاهتمام.

الاهتمام البالغ الذي يشبه الهوس هو الخاصة الأولى للعبقرية وكثير من القصص الطريفة عن المخترعين والمكتشفين تدل على هذا الاهتمام الذي يغمر النفس والعقل ويُنسي العبقري مواعيد غدائه أو أسماء أصدقائه، بل يكاد ينسيه كل شيء إلا موضوع دراسته وتفكيره، حتى لتعزو إليه الغفلة أو البلاهة.

وهذا الاهتمام نفسه هو صفة ذلك الصبي أو الشاب الذي كان يضرب ٧ أرقام على ٧ بلا حاجة إلى ورق وقلم؛ فإنه كان يجهل كل شيء في الدنيا إلا عملية الضرب هذه التي أصبح عبقريًّا فيها لاهتمامه بها، هذا الاهتمام الذي استغرق كل مجهود عقله ونفسه حتى لم يعد يبذل أي مجهود لشأن آخر في حياته.

وهناك بالطبع ظروف تزيد اهتمامنا أو تنقصه، ففي أيام الأزمات حين نخشى الحرب مثلًا يتضاعف بيع الصحف؛ أي إن الناس يقرءون أكثر مما كانوا قبل الأزمة، والقراءة تفتِّق ذكاءهم وتجعلهم يفكرون في المستقبل الخاص لهم والعام للشعب والعالم.

وإذا شئت أيها الأب أن تزيد ذكاء ابنك حدة فاملأ دنياه الصغيرة بالاهتمامات التي تشغله واجعل له مصلحة اجتماعية أو مالية في هذا الاهتمام، وعلمه العديد من الهوايات التي تغمر شخصيته وتحمله على التفكير والعمل.

إن معظم الاختراعات كانت هوايات تشغل فراغ المخترعين فقط، ولكنها كانت تجد منهم الاهتمام الذي يحرِّك الذكاء ويكاد يزيده.

والريفيون لا يفكِّرون في عمق؛ لأن وسطهم لا يدعو إلى الاهتمام.

والمرأة في البيت لا تفكِّر في عمق؛ لأن وسطها لا يدعو إلى الاهتمام.

والريفي يفكِّر في عمق عندما ينتقل إلى المدينة حين تحرِّك أشياؤها

المختلفة ذكاءه، فيهتم.

والمرأة تفكر حين تختلط بالمجتمع وتعمل وتنتج، وتهتم.

الدرس الثاني في العبقرية أو الذكاء العالي أن نتعلم الحضانة؛ أي كما تحضن الدجاجة وترقد على بيضها حتى يتفقأ وتخرج الفراخ، كذلك نحتاج نحن إلى أن نرقد على الفكرة التي تخطر لنا ونتركها أيامًا ونعود إليها من وقت لآخر، نتركها للعقل الباطن كي يعمل بخياله وأحلامه فيها، ثم نعود إليها كي نسلط عليها العقل الواعي؛ أي ندرسها بعقلين.

وأحيانًا يؤدي المرض مثل هذه الحضانة؛ لأن المريض في سريره يفكر كثيرًا ويحلم كثيرًا، وهو يعود من وقت لآخر لأفكاره يستأنفها ولكنه لا يجترها، وإنما يعاودها بالتنقيح.

وأحيانًا يؤدي الجرح النفسي إلى القلق، فالتفكير، فحدة الذكاء؛ لأن النفس تبقى مهمومة قلقة.

ومن هنا القيمة العليا التي نجدها أحيانًا – وأحيانًا فقط – لبعض الأمراض التي تقلقنا أو تُلزِمنا السرير.

الفكرة الحسنة لن تفرخ إلا كما تفرخ البيضة. كلتاهما تحتاج إلى أن تحضن أيامًا أو أسابيع.

الدرس الثالث في «كيف نتعلم العبقرية» هو أن نتعود الثقافة؛ أي نجعل الثقافة عادة ننشأ عليها ونحن أطفال في البيت، وهذا بالطبع يجب أن

يضطلع الآباء به، كما يجب أن تكون هناك كتب مغرية نحبها ونُقبِل على موضوعاتها منذ الطفولة، فننشأ مستطلعين متسائلين مستفهمين.

وميدان العلم هنا أوسع من ميدان الأدب، فإذا كانت كتب الأطفال عن هذه الدنيا تبحث وتشرح موضوعاتها العلمية في الاختراع والاكتشاف فإن الصبي ينمو نموًّا عضويًّا نحو الشباب ثم نحو الرجولة المكتملة يدرس ولا يطالع، ويبحث ولا يسلِّم، ويؤمن بالمنطق السيكلوجي العلمي ولا يسلِّم بالعقائد الموروثة.

وكثير من عاداتنا ونحن في الأربعين أو السبعين من العمر تعود إلى أننا تعودناها أيام الشباب أو الصبا، فإذا كنا نلعب الورق أو نأكل اللب أو نسري عن همومنا بالسجاير أيام صبانا أو شبابنا، فإن مما لا شك فيه أننا سنستمر على هذه العادات حين نبلغ الستين أو السبعين من العمر.

وإذا كنا قد تعوَّدنا الدراسة والاستطلاع فإن عاداتنا ستبقى بشأنهما إلى أن نموت ولو بلغنا المائة من العمر.

خلاصة القول أن العبقرية لا تورَّث وإنما نحن نتعود ونتدرب عليها ونحققها بظروف وبيئات معينة: أولها الاهتمام، وثانيها الحضانة، وثالثها العادة. فانظر أين مكانك من كل هذا؟

الإيمان بالأرواح مرض

الإيمان بالأرواح برهان على عقدة نفسية تحتاج إلى العلاج السيكلوجي. وأذكر أني دُعيت قبل سنوات في الإسكندرية إلى بيت أحد الموظفين لرؤية الأرواح التي شرعت منذ أشهر تكسر أطباق المائدة وأكواب الشراب وتلقي بالأواني النحاسية على بلاط المطبخ، وذهبت فوجدت شظايا الأطباق، بل وجدت زهرية عظيمة لا يقل ثمنها عن سبعين جنيهًا وهي محطمة قد تناثرت أجزاؤها.

وقد مات رب هذا البيت، وكذلك ربته، ولذلك أستطيع أن أفسر هذا التكسير في الآتي:

ذلك أننا حين نكظم غيظنا نجد أننا ننفجر في يقظتنا فنتناول أقرب الأشياء إلينا فنقذف به ولا نبالي أن ينكسر، وكلنا يعذر هذا الكظم ويعمل على مواساته وتهدئته.

وإلى هنا لا نجد شيئًا غريبًا.

ولكن يحدث كثيرًا أننا نكظم الغيظ ثم نضغط أنفسنا خشية النقد أو الضرر الذي يعود علينا إذا أفرجنا عما في صدورنا بالسب أو الضرب أو الكسر، وعندئذٍ يكمن الغيظ، فإذا استولى علينا النوم جاءت الأحلام لتفريج هذا الغيظ المكظوم، فنحلم بأننا نضرب خصمنا أو أننا نراه في الطين والوحل ملوثًا يمشي في هوان وذلة، وهذا الحلم يريحنا بعض الشيء.

ولكن هناك من الناس مَن يحلمون فينهضون ويمشون ويؤدون أعمالًا على غير وجدان؛ أي إنهم يفعلون كل ذلك وهم في استغراق النوم، فإذا كان هناك غيظ مكتوم فإن هذا المغيظ قد ينهض في نومه ويكسر آنية البيت، يفعل كل ذلك وهو نائم فإذا استيقظ لم يذكر شيئًا.

وفي الصباح يقول سكان البيت إن الأرواح قد حطمت الآنية.

أذكر مثلًا الزوجة التي تكره زوجها وتريد الطلاق، ولكنها تجد أن المجتمع لا يقرها على ذلك، فهي مغيظة كاظمة، وهي تحلم مرة بأنها انفصلت من زوجها، وتحلم مرة أخرى بأنها تزوجت غيره وهنأت بزواجها، وتحلم مرة ثالثة هذا الحلم الذي يحركها فتنهض وتحطم الأثاث، وهو أثاث البيت الذي تكرهه، ثم تعود إلى فراشها وقد هدأت نفسها ونسيت كل شيء.

فنحن هنا إزاء عقدة نفسية أدت إلى بعض التدمير المنزلي. وقد شهدت أنا بالإسكندرية، كما قلت، هذه العقدة التي ولت فصولها حين انتهت بزواج جديد وانتهى بذلك كسر الأطباق.

وهذا الذي يُقال عن الأرواح التي تشفي الأمراض لا يختلف كثيرًا عما ذكرت؛ فإن المريض كاظم، وأيما كظم يحدث لنا! إن لم تفرج عنه، يندس في النفس ويكمن، والأحلام تفرج عنه بعض الشيء، ولكن المريض يلجأ إلى العقيدة التي يجد فيها أحيانًا ميناء السلام، ونعني أية عقيدة.

فإن الذي يشكو الصداع من ارتفاع الضغط في الدم قد يؤمن بأن

الترمس هو دواؤه الناجع، وهو يأكل بضع حبات منه كل مساء أو كل صباح.

والذي يشكو المرض السكري قد يؤمن بأن شراب الخروب هو أنجع دواء، وهو يملأ البيت بالخروب.

والذي يشكو الأرق قد يؤمن بأن رائحة النعناع تجلب إليه النوم.

والعجيب في كل ذلك أن المرضى يجدون بعض الراحة في كل هذه «الأدوية»؛ وذلك لأنهم يرتاحون إلى عقيدتهم، والراحة النفسية تؤدي إلى شيء من الراحة الجسمية، بل تؤدي إلى تخفيف الآلام.

والتجاء المرضى إلى الأرواح هو عقيدة تخفف بعض آلامهم؛ لأن المريض ما دام يؤمن بأنه سيُشفى ويوقن بأن الشفاء مؤكد فإنه يُشفى إذا كان مرضه نفسيًّا، ويُشفى شفاء تامًّا، أما إذا كان مرضه جسميًّا فإنه يجد الراحة النفسية التي تزيل آلام مرضه أو تخففها، ولكنها لن تزيل المرض.

وأخيرًا هناك ما يُسمى «العمى السيكلوجي»، وهو أن يكون أمامي شيء أو إنسان لا أحب أن أراهما، وعندئذٍ لا أراهما. كما أن هناك ما يُسمى «الصمم السيكلوجي» وهو ألا أسمع شيئًا لا أحب أن أسمعه مع أن جاري يسمعه.

وعكس ذلك يحدث، فإذا كنت أعتقد أني سأرى شيئًا أو إنسانًا فإن من المؤكد أني سأراه وإن لم يكن حاضرًا، وإذا كنت أعتقد أني سأسمع شيئًا

فإني سأسمعه وإن لم يكن هناك ما يُسمع.

بل إني أستطيع أن أؤلف صورة أو أسمع صوتًا لأيما شيء يُحس، وذلك للعقيدة التي تبعث في نفسي رغبة تشبه العاطفة كي أصدّق.

لنفرض أني مريض أشتهي الشفاء، وأنا أعتقد أن «الروح» ستأتي إلى الغرفة المظلمة وستقول لي إنني سأشُفى، فالعقيدة تبعث في نفسي الرغبة في التصديق، وأيما صوت يحدث أمامي أفسِّره بأنه يقول «أنت ستُشفى».

وعندئذٍ أخرج وأنا مرتاح وأشهد بأني سمعت الروح تتكلم.

وهذا عبث.

لماذا يترك الناس التفكير المنطقي ويعمدون إلى العقيدة؟

إن في الإجابة على هذا السؤال التفسير المقنع للتعلق بالأرواح؛ ذلك أن المؤمن بالأرواح «يعتقد» وقد يتعقل، وهذا الاعتقاد برهان على أن في نفسه حاجة ملحة إلى الإيمان بعقيدة يعتمد عليها كما لو كانت جدارًا يستمسك به أو عصا يستند إليها.

والتعقل لا يحدِث انفعالًا إلا الأقل الذي لا نكاد نحسه.

ولكن العقيدة تحدث انفعالًا قويًّا؛ إذ هي لا ترجع إلى منطق العقل الذي لا يعتمد على المعاينة والرؤية وإنما ترجع إلى الحاجة النفسية حين نحس الشك أو الخوف أو الزعزعة فنلجأ إلى عقيدة معينة نستند إليها كما

لو كانت الدواء الوحيد الباقي لنا.

ومن هنا السهولة في مناقشة أحد الناس في شأن يتعلق بمنطق العقل وإقناعه بتغيير رأيه إذا كان مخطئًا، ولكن من هنا أيضًا الصعوبة في إقناع رجل يتعلق بعقيدة وحمله على تغيير هذه العقيدة؛ إذ هو منفعل بها؛ خوفًا أو أملًا أو نحو ذلك، وهو يحس أن تخليه عن عقيدته يزعزع كيانه وهو لا يطيق هذه الزعزعة.

وأي إنسان يعتقد في شيء ما إنما يثبت بهذا الاعتقاد أنه يعالج به مركبًا أو عقدة نفسية يمكن السيكلوجي بالتحليل أن يعرف مصدرها ويعيِّن أسبابها، ولكن الأغلب أن هذا الإنسان يرفض التحليل للوقوف على أصول عقيدته؛ لأن كيانه النفسي مرتبط بها.

فالمجنون الذي يعتقد أنه ملك على مصر أو مدير أو محافظ لإحدى المديريات أو المحافظات لن تستطيع أن تقنعه بأنه مخطئ؛ لأنه مرتاح إلى هذه العقيدة، بل كذلك هذا الرجل الذي يزعم أن الأرض ليست كروية وإنما هي مسطحة، فإن جميع البراهين التي تصفع بها عقله لا قيمة لها إزاء استمساكه بعقيدته، وكذلك المؤمن بالأرواح.

العقيدة عاطفة، والعاطفة قريبة من الجنون الذي يغشى العقل ويُظلِمه بل يلغيه؛ ونحن لذلك نغضب بل نحنق حين يجادلنا أحد في عقيدة نعتنقها؛ لأنها تثير في أنفسنا عاطفة لا نتحمل نارها.

سيكلوجية الصحافة

الصحافة، مثل الرسم أو الموسيقى أو الشعر، موهبة، ولكننا لا نعني أن الإنسان «يُولد» صحفيًّا؛ لأن المواهب، بل العبقريات أيضًا، ليست وراثية، وإنما هي تُكتسب بالبيئة والنشأة والتربية والحاجة الاجتماعية.

والصحفي الموهوب، عندما تسأل عنه أيام صباه ثم شبابه، تجد أن غرامه بالصحافة كان يشغل ذهنه ويستنفذ نقوده ويستولي على دروسه ويُقلِق عائلته، فإنه حوالي الثانية عشرة مثلًا، كان يجمع الصحف ويغلِّف المجموعات من المجلات، ويعرف الكثير من التفاصيل عن حياة المحررين والمخبرين والكتاب، فإذا تقدمَتْ به السن وجدْتَ أنه يراسل الصحف والمجلات قبل أن يبلغ السادسة عشرة ويحاول زيارة الصحفيين ويكتب المقال ويشتري الكتب التي يسترشد بها عن حرفة الصحافة.

ولا عبرة بالقول بأنه كان في تلك السن فجًّا يكتب السخافات ويؤلِّف الهذر من القصص أو المقالات، فإن فجاجته هنا طبيعية منتظرة لأنه مبتدئ، ولكن العبرة بأنه يسير على الطريق الواضح، وهو أنه «يهوى» الصحافة، وأن لها في قلبه مكانًا لا يشغل مثله أي موضوع آخر.

وهنا السؤال السيكلوجي: لماذا «يهوى» الصحافة دون غيرها من الحرف؟

إن أهواءنا لا تطرأ مفاجئة، وإنما هي تتكون وتنمو وتتبلور، وهي في

الأغلب تبدأ في تكونها أيام الطفولة، ثم يكون لها من أيام الصبا ما يغذيها إذا وجدت الغذاء. فإذا وصلنا إلى سن الشباب عمدنا إلى التوفيق بين الهوى والمصلحة، أو بين نزعاتنا الفردية والملاءمة الاجتماعية، وعندئذٍ نختار من الحرف أو الصناعات أو الأعمال الكاسبة ما يتفق والهوى القديم الذي نشأ أيام الطفولة ونما أيام الصبا.

قد يكون هذا «الهوى» رذيلة لم تجد التربية السليمة لمعالجتها، مثال ذلك طفل نشأ على حب القسوة وكان في طفولته يهوى قتل الفراخ في أسابيعها الأولى؛ فإذا لم يجد التربية السليمة لمعالجة هذا «الهوى» فإنه يتجه نحو «السادية»؛ أي القسوة في الاشتهاء الجنسي. وهذا بالطبع مرض، ولكن ليس ضروريًّا أن يصل السادي إلى درجة المرض الذي يحتاج إلى علاج؛ إذ هو، بضغط الظروف التي تُربِّيه، يتسامى بالسادية فيحترف العسكرية ويدعو إلى القتال، أو يحترف الطب ويجد في الجراحة ما يلائم ساديته مع المنفعة الاجتماعية؛ ذلك لأن في الجراحة من شق البطون أو تمزيق الأعضاء أو بتر السيقان قسوة تنزع إلى السادية، ولكنها سادية متسامية قد ارتفعت من مستوى المرض إلى مستوى المنفعة.

السادية في أصولها الغشيمة تعذيب للمرأة وقت الاتصال الجنسي. وهي، بالتسامي، حرفة أو عمل يحتاج إلى شيء من القسوة ولكنه يخدم المجتمع.

ولكن السادية، مع ذلك، أصيلة في جميع الناس بلا استثناء، ولكن بدرجات منخفضة لا نكاد نحس بها؛ فإن في الاتصال الجنسي بين السويين

شيئًا منها، وكثير منا يحب أن يرى القتال بين الحيوانات أو يحب قراءة القصص التي تحفل بالقتل والخطف والغدر، فإننا نحس هنا لذة سادية لنا فيها نصيب المتفرج وليس نصيب المشترك.

ولكن هذه العاهة النفسية قد تفدح حتى لَيقتل الرجل، المريض، شريكته في الاتصال الجنسي وقت الاتصال.

وجميع الأمراض النفسية أصيلة في نفوسنا سواء أكنا أصحاء أم مرضى، وإنما يختلف المريض من السليم بالكم وليس بالكيف. وليس مَن نسميه «مجنونًا» يهذي بأنه ملك مصر، أو بأنه يركب الجواد ويطير به في الهواء، أو بأن القطار يدوسه ويفتت أعضاءه، وليس هذا المجنون المريض طرازًا آخر غير طرازنا نحن السويين؛ فإننا نشترك معه على الأقل بأننا نسلك سلوكه وقت الأحلام حين يتسلط عقلنا الباطن على عقلنا الواعي.

و«المجنون» يختلف منا فقط في أننا لا نخضع لهذا التسلط سوى دقائق وقت الحلم، أما هو فيبقى طوال السنين وربما طيلة حياته وعقله الباطن يتسلط على عقله الواعي.

وهناك، إلى جنب السادية، عاهة نفسية جنسية أخرى تفدح أحيانًا حتى تقود صاحبها إلى السجن أو المارستان، هي ما يُسمى «العرض».

وقبل أن نذكر «العرض» نحتاج إلى أن نقول إن العاهات النفسية كثيرًا ما تتبلور في الاتصال الجنسي، فإن السادية تظهر على أسوأها في هذا الاتصال، و«العرض» كذلك يتبلور ويظهر على أوقحه في الرغبة

الجنسية؛ لأن «العارض» يبدي أعضاءه التناسلية قهرًا واضطرارًا بحيث يقع تحت طائلة العقاب على العمل الفاضح.

ولكن هناك أيضًا العارض الخفيف الذي يتجاوز المواقف الجنسية فيرتفع إلى الملاءمة الاجتماعية، فإن «حب الظهور» هو إلى العرض بمثابة فن الجراحة إلى السادية.

وذلك الرجل الذي يهوى الخطابة، أو الصحافة، أو المسرح، أو السينما، هو عارض أيضًا من حيث لا يدري، قد ارتفع بعاهة جنسية أصيلة في جميع الناس فاقتصر منها على حب الظهور في حِرَف تحتاج إلى هذه الخصلة الأخلاقية.

فالصحافة، من الناحية السيكلوجية، يمكن أن تُسمى عرضًا متساميًا.

ولكن الصحافة، مثل الجراحة، تحتاج إلى درس وتعب وتنقيب.

وهذا الدرس نفسه يعود إلى مركبات عديدة، فهناك الصحافة اليسارية التي تتسم بالثورة أو التمرد على الأوضاع الاجتماعية أو الفنية أو السياسية أو المعارضة للنظم والعادات، وأعظم مَن ينجح فيها هو ذلك الشخص الذي لم يسعد بحياته العائلية، فإنه ينشأ متمردًا في المجتمع، ونعني هنا أن يكتسب هذا الاتجاه منذ طفولته حين لم يكن يجد الحرية في البيت فصار بعد ذلك ينشدها في الوطن.

ونحن في كل ما ننشد من أمان وفي كل ما نتجه إليه من خطط إنما

نستوحيه – كما سبق أن أشرنا – من حيث لا ندري أو ندري، من أيام طفولتنا، نستوحيه خامًا بدائيًّا، ثم، بعد أن نتعلم ونتسامى بعاداتنا الفكرية الأولى، ننشد نظامًا يتفق وما تولَّد في نفوسنا من ميول طفلية.

والصحفي يأخذ في درس الموضوعات التي تتصل بهذه الميول، وهو قد يأخذ من الصحافة بالناحية الخبرية، أو بالترجمة، أو بالعلوم والآداب، أو بشئون المرأة، أو شئون الشباب، وهو في كل ذلك يستند إلى اتجاهات أصيلة تنهض على مركبات قديمة في كيان شخصيته.

وهنا نحتاج إلى أن ننتقل من الأساس السيكلوجي «العرضي» إلى أساس سيكلوجي آخر، فإن هناك طرازين من الناس: أحدهما الطراز الانطوائي الذي يتسم بوجه مستطيل نحيف وقامة مديدة نحيفة ورأس لا تصلع فروته، والطراز الانبساطي الذي يتسم بوجه مستدير سمين مليء باللحم ورأس يبدأ فيه الصلع، منذ سن الخامسة والعشرين، من الجبهة ويسير نحو الحلق في نظام كأنه مرسوم، بحيث لا يصل الانبساطي إلى سن الخمسين أو حتى الأربعين إلا ويكون أعلى رأسه في صلع تام. وهذا إلى أن الانبساطي يسمن ويستكرش وهو في الأغلب ليس مديد القامة مثل الانطوائي.

هذا هو الرسم الكروكي لكل من الطرازين في اللحم والعظم، أما الرسم النفسي فيتلخص في أن الانطوائي يتأمل أكثر مما يتحرك، ويجد أكثر مما يهزل، وينفرد أكثر مما يجتمع، وهو إذا دخل في الصحافة كتب المقالات وألَّف الكتب وعلَّق على الأخبار وفق المبادئ والمذاهب،

وبكلمة أخرى هو فيلسوف الصحافة المتأمل المفكر المتمذهب.

أما الانبساطي فيحب الحركة وينتقل ويتعب كي يتحرى حقيقة الخبر، وهو خفيف الروح كثير الدعابة والهزل، وهو يرى على الدوام مجتمعًا، يأتنس بحديث الأصدقاء ويكره الانفراد، وهو لا يميل إلى القراءة والتأمل، وهو في الصحافة كاتب الخبر لا يطيق قراءة المقال ولا يعرف كيف يكتبه.

وجرائد الأخبار والصور هي الجرائد الانبساطية التي قد تسرف فتنشر لنا أخبارًا أو صورًا تنأى عن التحفظ والوقار.

وجرائد المقالات والتعليقات هي الجرائد الانطوائية، قد تسرف فتتجنب رواية الأخبار وتحتقر قيمة الصور فيعزف عنها جمهور القراء.

الاستقلال هو الشرط الأول للشخصية

الشخصية شيء نعرفه ونلمسه في بعض الأفراد، ولكننا لا نعرف كيف نعين تعريفه.

فقد ذكر المؤرخون أن إخناتون كان أول شخصية في التاريخ؛ وذلك لأنه رفض الانسياق وراء التقاليد والإيمان بما يؤمن به المجتمع المصري القديم، وآثر استقلاله الفكري فكفر بالآلهة وآمن بآله واحد.

ونحن نرى هنا علامة أولى، بل علامة كبرى من علامات الشخصية وهي استقلال الفكر، استقلال السلوك، الجرأة على التصريح بالرأي الخاص ولو خالف هذا الرأي مزاعم الجماهير أو مزاعم الخاصة.

وفي القرن الرابع نجد في مصر خلافًا مذهبيًّا كاد يكون شجارًا، ذلك أن أحد المصريين – هو الأسقف أثناسيوس – ارتأى رأيًا في الدين يخالف آراء الكافة من رجال الدين في الدولة الرومانية الشرقية، واستمسك برأيه وثبت عليه، فقال له أحد الأساقفة: إن العالم كله ضدك.

وهنا نجد موقفًا مشابهًا لموقف إخناتون هو أن الشخصية تحتاج إلى شرط لا غنى عنه هو استقلال الرأي.

ونحن حين نعجب بأبي بكر أو عمر، أو بغاندي أو نهرو، أو بإبراهام لنكولن أو ثورو، إنما يكاد ينحصر إعجابنا في أن كلًّا من هؤلاء كان

مستقلًّا في رأيه لا يبالي ولا يخشى ما يقوله الآخرون.

بل إن استقلال ثورو قد ارتفع إلى حد العمل؛ فإنه كان يقول بضرورة «العصيان المدني» وعمل بهذا القول، فرفض أن يؤدي الضرائب، وحُبس لذلك.

وكل هؤلاء الذين ذكرنا، نصفهم بأنهم كانوا يمتازون بشخصيات قوية؛ لأنه كانت لهم ميزة الاستقلال في الرأي.

والشخصية بطبيعتها اجتماعية.

وليس هناك مع ذلك مَن ينكر أن هناك اختلافات في الكفاءات الوراثية تعين وتميز بين الشخصيات الانبساطية، ولكن المجتمع هو الذي يعين ٩٩ في المائة من الشخصية.

أي إننا نكتسب الشخصية من الوسط الاجتماعي الذي نعيش فيه، ومن الحوادث التي نتلقاها في حياتنا ونستخلص منها عبرة لأخلاقنا وحكمة لسلوكنا.

ولذلك هناك المجتمعات الحرة التي تتيح للفرد أن يستقل ولا يخشى الموت أو ما يقارب الموت من المقاطعة، وهذه المجتمعات تبني شخصيات أفرادها.

أما حين يكون المجتمع تقليديًّا ينكر حرية الفكر ويجعل للعادات في اللباس، والسلوك، والعيش، قواعد لا يجوز تخطيها، فإنه يهدم الاستقلال

ويعطل نمو الشخصيات.

إننا نذكر نابليون بحروبه، ولكن هناك موقفًا واحدًا وقفه يجعلنا، حين نذكره، نعزو شخصيته إليه دون هذه الحروب.

ذلك أنه حين عزم على أن يكون «إمبراطورًا» احتاج إلى أن يجعل البابا، زعيم الكاثوليكية في العالم، يضع التاج على رأسه، ولكنه في اللحظة الأخيرة تذكَّر استقلاله، فنهض وحمل التاج بيديه ووضعه بنفسه على رأسه، كأنه أراد أن يعلن للعالم أنه مستقل.

وفي أيامنا يؤكد سارتر استقلال الشخصية البشرية، وأن أول شرط لهذا الاستقلال أن نؤمن بما نعتقد نحن، وليس بما يعتقد غيرنا من التقاليد الاجتماعية أو العقائد الغيبية، وهذا الاستقلال هو أعظم ما يجذب إليه الشبان في فرنسا بل في أوروبا.

وحين يحيا الشعب في نهضة تكثر الشخصيات فيه؛ لأن النهضة تدعو إلى الانطلاق من القيود واستشعار الحرية، وكلاهما يعمل للتفكير المستقل ثم لبناء الشخصية؛ ولذلك نجد شخصيات مستقلة، بل مسرفة في الاستقلال أيام النهضة الأوروبية، مثل باركيلوس وجاليليو وعشرات غيرهما.
باركيلوس الطبيب الإيطالي يحمل مؤلفات جالينوس وابن سينا ويحرقهما علنًا في ميدان المدينة ويصيح في الشعب بأن القدماء لا قيمة لهم.

وجاليليو يُجبر على الاعتراف بأن الشمس تدور حول الأرض فإذا

وصل إلى الباب ليخرج يقول: بل الأرض هي التي تدور.

كلاهما له شخصية قاعدتها الاستقلال في الفكر والرأي.

ولكن الاستقلال في الرأي لا يعني عناد الجاهل أو تعنت الأبله؛ ذلك أن الشخصية تحتاج إلى المعارف التي تستقطر منها حكمة العيش وسداد القصد، وقد تكون هذه المعارف مقصورة على شئون التجارة وعندئذٍ نجد التاجر الذي يمتاز بشخصيته، وقد تتجاوز ذلك إلى الآداب والفلسفات، وعندئذٍ نجد المفكر الذي يستقل في فكره ورأيه بشخصيته العالية.

وأعظم الشخصيات بالطبع إنما تنشأ في وسط يتسم بالمعارف السليمة السديدة وبالاختبارات الثانية العديدة.

وقوة الاختبارات ووفرة المعارف تكوِّنان الشخصية.

ولذلك نحن لا نجد شخصية للمرأة التي تقصر وجودها بل حياتها على شئون البيت لا تعرف المجتمع أو الثقافة أو حتى الضيافة. ولكن المرأة المصرية التي خرجتها جامعاتنا في العشرين سنة الأخيرة تمتاز بشخصية؛ لأن لها رأيها المستقل وأهدافها الشخصية التي قد تخالف مألوف المجتمع.

إن الوسط الاجتماعي، بقدر ما يتيح للأفراد من استقلال، وأيضًا بقدر ما يتيح لهم من اختبارات ومعارف مختلفة، يكوِّن الشخصيات.

فوسط المدينة لهذا السبب أدعى إلى تكوين الشخصيات من وسط الريف.

وأحب أن أكرر أن الشخصية لا تعني العناد أو التعنت؛ فإن هذين المعنيين يثبان إلى أذهاننا حين نذكر الاستقلال الذي كثيرًا ما يكون ثباتًا على رأي، لكن نحن واهمون هنا؛ لأنه إذا كان الثبات على رأي سديد يدل على شخصية قوية فإن المرونة كذلك تدل على عقل يقظ، وهذه المرونة هي التي تهيئ الفرد لمواجهة المواقف الجديدة حتى يتغير ويتطور.

أين شخصيتك أيها القارئ؟ أين استقلالك؟

إن الدنيا تتغير بالشخصيات المستقلة التي تأبى الخضوع والاستسلام لعادات الأسلاف وتقاليد القرون. الشخصيات التي تثبت على الرأي الشخصي الناضج ولكنها أيضًا تتغير وتتطور بمقتضى الظروف.

السعادة هي أن تمارس الحياة

منَّا مَن يمارس التجارة أو الزراعة، ومنَّا مَن يمارس المحاماة أو الطب أو وظيفة ما في الحكومة أو الهيئات الحرة.

ونحن كي نمارس فنًّا أو صناعة أو حرفة، نحتاج إلى أن ندرسها ونعرف أسرارها ونمهر فيها، وعلى قدر دراستنا يرتفع مقدار كسبنا منها أو تفوقنا فيها.

ولكن الذي ننساه أن قيمتنا الإنسانية واستمتاعنا وسعادتنا، بل صحتنا النفسية، تحتاج جميعها إلى أن نمارس المحاماة أو الطب أو الزراعة أو الصناعة، وكما تحتاج هذه الصناعات إلى مهارة وحذق، كذلك تحتاج ممارسة الحياة إلى مهارة وحذق، وهذا نهمله، وإهمالنا لممارسة الحياة هو في النهاية إهمال للصحة النفسية، والتربية الذاتية، وحكمة العيش، والفلسفة التطبيقية.

وهذا المجتمع الاقتنائي الذي نعيش فيه يكسبنا أهدافًا ويعين لنا أساليب تجعلنا نُكبِر من شأن الثراء والاقتناء، فنتعب ونكد حتى ننجح، ولكن هذا النجاح في الثراء والاقتناء فقط وليس في الحياة.

وهذا الرجل الذي كنا نعده مستقيمًا فاضلًا يخرج من بيته إلى عمله ويعود من عمله إلى بيته، يدخر ويقتني منزلًا ويمضي شيخوخته بطريركيًّا يسوس عائلة تكاد تكون رهطًا، هذا الرجل لم يعد المثل الأعلى لنفوسنا

الحرة وعقولنا المستطلعة؛ إذ هو رجل عرفي عاش حياة سلبية يتوقى فيها ويحتجز ولا يقدم ويغامر ويشتبك، وبكلمة أخرى لم يمارس حياته.

إنما نمارس حياتنا حين نعي أن فراغنا ١٨ أو ١٦ ساعة، بينما عملنا لا تزيد مدته على ٦ أو ٨ ساعات. وبناء على ذلك نعني بفراغنا العناية الكبرى. فنعرف كيف نقرأ الصحيفة والكتاب، ونشتبك في شئون السياسة والاجتماع، ونناقش فلسفة سارتر وماركس، ونحاول أن نفهم الذرَّة ونعرف سطح المريخ، ونختبر الدنيا بالسياحة ونختبر المرأة بالحب، ونجرؤ على أن نفهم هذا الكون، ونجرؤ على أن نستكنه الظلام الذي خيَّم على أبي نواس والمركيز دوساد كما خيم على نفوس آلاف المجرمين، ونحاول أن نصلح هذا الفساد.

إنما نمارس الحياة حين نسيح. ولا نعني بالسياحة تلك الوثبة الجوية إلى قُطرٍ ناءٍ نمضي فيه أسبوعًا وأسابيع في رؤية سينمائية للمدن وللمسارح. وإنما نعني أن يمضي كل إنسان من عمره عامًا أو أعوامًا في فرنسا أو الهند، وفي الصين أو ألمانيا، وفي السودان أو تركيا.

أليس هذا الكوكب ملكنا؟ فكيف إذن نغادره بالموت قبل أن نراه ونختبره؟ قبل أن نعرف مشروعاتهم الكبرى في زراعة صحاريه، وفي تغيير المجاري، وفي استغلال قطبيه، وفي تربية الأسماك وفي خبطاته، وفي إنماء ثرواته، وفي تعميم التعليم والثقافة، وفي مكافحة الحرب والمرض والجهل والفقر.

إن ممارسة الحياة فن على كل منا أن يتعلمه بنفسه، وأن يقدِّر الفرص المتاحة له كي يجرؤ ويستطلع ويختبر، وأعظم أنواع الاختبار وأجملها وأسماها هو الحب الذي ينتهي بالزواج فيبني حصنًا من السعادة الدنيوية.

وشبابنا يهملون دراسة الحياة ثم يعجزون عن ممارستها، وقصارى مجهودهم في الدنيا أن يمارسوا صناعة للارتزاق. وقد ضيَّق علينا الاستعمار والاستبداد معًا حين منعا عنَّا إنشاء المصانع، حتى صار الارتزاق مشكلة، ونشأ التعطل فأصبح الهم والاهتمام الأولان لكل شاب الحصولَ على عمل للارتزاق، وحتى أصبح الاتجاه للنشاط وانبعاث الهمة والطموح مقصورة جميعها على لقمة العيش لا أكثر.

وأسوأ من الشاب الفتاة، على الرغم من القلة الصغيرة التي تعلمت من نسائنا واحترفت الحرف لا تزال الملايين من فتياتنا ونسائنا يحتجزن في البيت كأنه هو كل ما ينبغي أن تُطلَق فيه طاقتهن البشرية، وكأن هذه الدنيا بما فيها من علم وصناعة، وعمل وسياحة، وفلسفة وسياسة، كأنها لا قيمة لها عندهن، فهن في احتجاز منزلي قد أدى إلى احتجاز ذهني.

وليس المنزل، في تطوره الأخير، مما يستوعب نشاط المرأة. بل هو لا يستوعب نصف نشاطها. ويجب لذلك أن يكون لكل امرأة نشاط خارجه هو نشاط الحياة الحية المتسائلة المستطلعة الدارسة المشتبكة في شئون كوكبنا؛ لأن ما ينطبق على الرجال في ممارسة الحياة ينطبق على المرأة.

وهذا الدستور الجديد الذي منح المرأة حق الانتخاب قد فتح كوة لها

على الدنيا. وهي كوة صغيرة بلا شك، ولكنها سوف تتسع بل تتراحب إلى ميادين ثم إلى آفاق في المستقبل، وعندئذٍ يزول عنها حجاب العقل كما زال عنها حجاب المنزل.

وأخيرًا يجب أن أقول إن الفرق بين رجل سعيد سليم النفس، وبين رجل بائس مريض النفس، هو أن الأول كثير الاهتمامات العليا التي ترفعه من الشئون العادية اليومية إلى قمم الأفكار حتى يحس بأن هذا العالم كله هو قريته التي يعرف ناسها وشوارعها ويهتم بإصلاحها وإنمائها. أما ذلك البائس الذي لا يدري أحيانًا، لفرط بؤسه، أنه بائس، فهو ذلك الذي لا يهتم إلا بعمله ولقمته. وهو جدير عندما يموت أن يُكتب على قبره: «وُلد إنسانًا ومات بقالًا.»

أنت أيها القارئ إنسان قبل أن تكون موظفًا أو صانعًا أو فلاحًا أو محاميًا أو مهندسًا أو بقالًا، فأحي إنسانيتك وغذِّها بالاهتمامات العالية، واذكر أن من حقك أن تستقطر آخر قطرة من السعادة على هذا الكوكب؛ إذ ليس لك كوكب آخر تعيش فيه وتنشد فيه السعادة؛ لأن المريخ لا يزال حلمًا لما يتحقق احتلاله على أيدي البشر.

لا تكن في حرب باردة مع نفسك

كثيرًا ما دعوت إلى الأخذ بأساليب الحضارة الغربية العصرية وأهدافها، وقد يعتقد مَن يقرأ قولي في هذا الموضوع أني مغرم بهذه الحضارة لا أعرف ما هو أسمى منها، وهذا وهمٌ أعذر القارئ عليه.

ذلك أن ما يدفعني إلى القول بالأخذ بالحضارة الغربية العصرية أنها حضارة عدوانية مسلحة في السلم والحرب، وأننا إذا لم نجارها استطاعت أن تهزمنا وتكتسحنا، بل تبيدنا كما تفعل الآن مع الزنوج في أفريقيا، وأكبر أسلحتها هو الصناعة التي يجب أن نعجِّل بل نهرول في الأخذ بها.

ولكني مع ذلك لا أعمى عن العيب الأصيل في هذه الحضارة، وهي أنها انفرادية اقتنائية تزاحمية عدوانية شعارها الذي تعمل به هو: تنازع البقاء، والبقاء للأقوى، وأنا وحدي، والموت للمتخلفين.

وهذا النظام الانفرادي الذي تحاول جميع الطبقات الواعية أن تنتقل منه إلى نظام تعاوني اشتراكي هو الأصل في جميع أو معظم أمراضنا النفسية، وفي جميع ما نعاني من هموم وتوترات ومخاوف قد تحملنا على الإجرام أو تردينا في مهاوي الجنون أو تدفعنا إلى الهروب والنسيان بالخمور والمخدرات.

هذا النظام الانفرادي هو الذي يشيع القلق بيننا؛ لأننا نخشى التخلف والإفلاس والفقر والجوع، فنمتلئ همومًا تزيغ عيوننا وعقولنا عن

رؤية الحياة كما يجب أن تُرى بقيمها الإنسانية الحقيقية بدلًا من القيم الاجتماعية الزائفة التي تمليها علينا هذه الحضارة؛ ولذلك عندما نقول بالأخذ بالحضارة الأوروبية العصرية يجب ألا ننسى هذه العيوب الأصيلة فيها، وإنما تدعو إليها مؤقتًا كي نحتمي من عدوانها، سلاح بسلاح، ثم نسعى لإيجاد المجتمع الاشتراكي الذي يريحنا من مآسيها وفظاعاتها.

كلنا مهموم. والهموم سموم تأكل أعصابنا وتفشي أمراض النفس والجسم في أشخاصنا وتقصر أعمارنا؛ فإننا نحيا، بحكم الأخلاق التي يمليها علينا المجتمع الانفرادي الحديث، في طموح يرهقنا ولا نستطيع أن نتحمل مسئولياته، ونطمع في الثراء أو الجاه بأكثر مما نطيق، ونعاني ألوانًا من الحسد والغيرة فنحقد، وكثيرًا ما نكظم، وليس شيء يحطم الجسم والنفس مثل الكظم. وأحيانًا نستسلم لخرافات تثير في نفوسنا عواطف زائفة قد تنتهي بموتنا أو دمارنا أو جنوننا.

اعتبر هذه الموتة التي نشأت عن روح الاقتناء.

شاب قبطي أورثوذكسي أحب فتاة قبطية بروتستنتية وشرع يهيئ الوسائل للزواج منها، ولكن أمه كانت أورثوذكسية متعصبة لمذهبها، أو هي كانت تعتقد ذلك، فحاولت أن تمنع ابنها من إتمام هذا الزواج، ولكنه أبى وأصر على إتمامه، فقصدت الأم، حماة المستقبل، إلى الفتاة واعتذرت إليها عما قامت به من محاولات للتعويق وقبَّلتها، وعادت إلى منزلها، وتم الزواج.

وحدث بعد ذلك أنه في صبيحة اليوم التالي للعرس أن استيقظت الحماة وهي عمياء لا ترى شيئًا، وبعد أيام حدث لها فالج، وفي نهاية الأسبوع ماتت.

فما هو التفسير؟

التفسير أنها كانت تنظر إلى ابنها بروح الاقتناء كما لو كان عزبة تملكها وتحب أن تحرس عليها حتى لا تضيع منها، روح الاقتناء هي الروح العامة للحضارة الانفرادية التي أخذنا بها الحضارة الاقتنائية؛ ولذلك رُعِبت الأم عندما أحست أنها ستفقد ابنها بالزواج، ووجدت، بل اختارت، من حيث لا تدري، العلة السطحية الوهمية، وهي أن الفتاة ليست أورثوذكسية مثلها ومثل ابنها.

واعتبر هذه الموتة الثانية.

كان عاملًا فقيرًا في مصنع، وارتقى لكثرة ما يبذل من مجهود أحق أن يقوم به رجلان بل ثلاثة بدلًا من واحد، وبكلمة أخرى كان يرهق نفسه ويهتم ويقلق، إرهاق وقلق أحدثا له زيادة في ضغط الدم فصارت الصغائر تبدو له كبائر ثم ذات صباح مات بانفجار في المخ.

فما هو التفسير؟

كلنا يطمح إلى النجاح، وهذا الطموح فضيلة إذا مارسناه في اعتدال بلا إسراف، ولكن النجاح ماء مَلِح يزيد عطشنا؛ ولذلك أرهق هذا الرجل نفسه كي يستزيد من النجاح، فكان يجهد ويعمل أكثر مما يتحمل حتى زاد

ضغط الدم على درجة الاعتدال، وانتفخت الشرايين حتى انفجرت.

ومجتمعنا، كما يدعونا إلى الاقتناء، يدعونا كذلك إلى الطموح وأحيانًا يقتلنا، أو نحن نقتل أنفسنا بالعطش إلى الاقتناء وبإحساس الطموح المسرف. وفي كليهما قلق وهم يحدثان إرهاقًا يؤدي إلى توترات ومخاوف لا نطيقها.

كل منا لهذا السبب، في حرب باردة مع نفسه، إلا أولئك الحكماء الذين عرفوا كيف يقنعون وكيف يسوسون أعصابهم وينظرون إلى الحياة النظرة الفلسفية ويسلكون السلوك الحكيم.

لقد قام «بافلوف» بتجارب على الكلاب نستطيع أن نستخرج منها حكمة لحياتنا في هذه الحضارة التي ترهقنا وتقلقنا. ذلك أنه علَّم طائفة من الكلاب أن تنتظر تقديم الطعام بعد رنين من الجرس يبلغ ٥٠ رنة في الدقيقة، فإذا زاد الرنين إلى مائة رنة فَهِم الكلب أن الطعام لن يُقدم إليه.

٥٠ رنة تعني طعامًا.

١٠٠ رنة تعني «لا طعام»؛ أي حرمانًا.

وكرر بافلوف هذا الدرس للكلاب حتى فهمته واستقرت عليه، ثم قام بتجربة أخرى تتصل بنا نحن البشر؛ وذلك أنه جعل الجرس يدق ٧٥ رنة ثم يقف. فلا هو يؤذن بالطعام ولا بالحرمان فماذا حدث؟

حدث القلق عند الكلاب من الشك، فصارت تعوي وتتضور كأنها تبكي وتتألم.

نحن في الحضارة العصرية نعيش في قلق الشك لا نعرف هل سننجح أم نخيب؟ هل نثري أم نفلس؟ هل نمرض أم نبقى في صحتنا؟ هل نحيا أم نموت؟ وكذلك لنا شكوك بشأن أولادنا وأصدقائنا.

نعيش في الحضارة العصرية على درجة ٧٥ رنة في الدقيقة، لا طمأنينة بالطعام ولا يقين بالحرمان؛ ولذلك نحس القلق الذي يزيد، بقوة خيالنا، إلى مخاوف وأمراض نفسية خطيرة.

وهذا القلق يجعلنا مكروبين، ضائقين، متوترين.

والتوترات ترهقنا لأنها تحملنا على أن ننفق من قوة أعصابنا على العمل الصغير أكثر مما يستحق؛ لأن المتوتر كالمتعجل المهرول الذي يحاول ربط حذائه فيخطئ ويكرر المحاولة؛ أي إنه ينفق قوته سدى.

وقد وجد بافلوف أن الكلاب القلقة التي ألح عليها بدرجة ٧٥ رنة تقصر أعمارها وتمرض بأورام مختلفة ويسقط شعرها وتُصاب بما يشبه الروماتزم في مفاصلها؛ أي إنها تبكر في الشيخوخة.

أي إن القلق العصبي عند الكلاب – ويقابله القلق النفسي عندنا – يعرضننا للأمراض الجسمية وينقص أعمارنا.

كيف نسوس أعصابنا ونحن نعيش في حضارة تبعث في نفوسنا الشك والقلق وتحملنا على التوترات التي لا تنقطع؟

يجب أن يدرس كل منا حياته ويعرض للسنين التي مضت من عمره والسنين التي ينتظرها، ثم يؤلف من هذه الحياة نظامًا معقولًا بعد أن يقيس

كفاءاته إلى مقدار ما يواجه من ظروف، وعندئذٍ يعرف ويستقر على سلوك معين ترتاح إليه نفسه.

فنظامنا الاجتماعي الحاضر يمجد الأنانية ويملأنا بروح الطمع والاقتناء، ويبعث في نفوسنا عواطف المباراة والحسد والغيرة، ونحن في حاجة إلى شيء من هذه العواطف كي نجد ونكسب حتى نعيش، ولكن يجب أن نفعل هذا بلا إسراف حتى لا نرهق؛ أي يجب أن نحد طموحنا فلا نطلب النجوم التي لن ننالها.

وتوترات النفس تؤدي إلى توترات الجسم، والعلاج الأول للتوترات هو النوم الذي وصفه نيتشه بأنه سيد الفضائل، ولكن يجب أن ننام كي نستيقظ؛ لأن النوم ليس غاية إنما هو وسيلة لأن نصحو ونجد ونتنبه ونفهم، وإذا كان النوم حسنًا وافيًا صارت يقظتنا حسنة وافية.

وأقل من النوم في الراحة هو الاسترخاء للعقل والجسم.

ويجب أن نلجأ إليه من وقت لآخر، بل يجب ألا ننام إلا بعد الاسترخاء؛ أي يجب ألا نطلب النوم ونحن في التوتر نحس الكرب والضيق؛ لأن نومنا عندئذٍ لن يكون استجمامًا؛ إذ هو سيمتلئ بأحلام الكابوس، فنتشاجر ونتساب في النوم، ونستيقظ مرهقين متعبين.

قد يرد القارئ بأنه لا يتمالك توتراته قبل النوم، وجوابي هنا: «اكذب على نفسك»؛ أي في اللحظات الأخيرة وأنت تشرع في النوم، وقد تمددت واسترخيت على الفراش، قل مثل هذه الكلمات الإيحائية أو ما يقابلها من

ظروف حالتك: «أنا مرتاح، في استرخاء تام، سأنام نومًا عميقًا مريحًا إلى الصباح.»

قل هذه الكلمات نحو عشرين مرة وثق أن عقلك الباطن يسلم بها؛ لأنك عندئذٍ لن تكون نائمًا فقط بل منومًا أيضًا تقبل الإيحاء.

ولكن تذكر أن الاستجمام السيكلوجي الأصيل يقتضي تخلصك من همومك وتوتراتك، ولن يكون هذا إلا إذا راجعت حياتك ووزنت كفاءتك وفلسفت، والفلسفة هنا لا تنقص ضرورتها لك عن الخبز.

لا تكن في حرب باردة مع نفسك، فإن نفسك هي إنسانة جسمك، ولا تثر في نفسك عواطف الطموح المسرف، والحسد والغيرة، والرغبة الجامحة في النجاح والاقتناء.

ثم ما ينتج عن هذه كلها من عواطف القلق والخوف إذا لم تتحقق، ثم التوترات فالانهيار.

قاوم روح الحضارة الانفرادية فلا تتركها تكتسحك، وفكِّر في الحب والقناعة، وخذ بفضائل عليا جديدة، وأعظمها أن النجاح الصحيح هو صحة النفس والجسم، مع النمو في الثقافة والتوسع في الوجدان، والحب للطبيعة والناس، والاعتماد على العقل دون الانسياق مع العواطف.

وأخيرًا لا تنس أن غذاء نفسك هو الفنون، فتعلم فنًّا ومارسه، وكن ذكيًّا، وأعلى أنواع الذكاء هو الإنسانية.

النعيم المقيم

كان عبد العال بقالًا صغيرًا يعيش من دكان حقير في زاوية منسية في حي وطني، وكان يبيع البقول المتخلفة من الدكاكين الكبيرة، وهي سقط البقول يشتريها سقط الناس، وكان يعيش مع أمه التي تجاوزت الخمسين والتي عرفت من حياتها المريرة الماضية كيف تستغل القرش والمليم إلى أقصى حدودهما في شراء الخبز البائت والبصل والفجل، وكيف تصنع المخلل، وتطبخ نصف الرطل من اللحم مع بعض البقول فتُخرِج منه أطباقًا من الطعام الشهي.

وكانت هي وابنها عبد العال راضيين بهذه العيشة، لا يطمعان في أحسن منها؛ إذ لم يكن هناك منفذ إلى ما هو أحسن.

ولكن الحظ الذي يرفع ويحط نزل ذات يوم على عبد العال بما يقارب عنده ليلة القدر؛ فإن عمه مات فجأة بلا وارث، وكان يملك منزلًا يغل سبعة جنيهات في الشهر.

وتسلم عبد العال المنزل، واشترى بدلة أوروبية، وخلع الجلباب وأصبح عبد العال أفندي، وكبر دكانه وازدحم بالبقول الحسنة واستخدم صبيًّا.

وتسامع الساكنون القريبون منه بقصته: الميراث والبدلة والصبي، وطمحت عيون الفتيات إلى الزواج منه، وأصبحت أمه مقصودة تزورها

سيدات الحي، اللائي لم يكن قبل ذلك يعرفنها، ومع كل منهن ابنتها التي تجاوزت العشرين أو كانت دونها بقليل. ولم يمضِ قليل على وفاة العم الموروث حتى كان عبد العال أفندي قد تزوج، وبعد أقل من عام كان يستمتع برؤية ابنه زكي طفلًا جميلًا.

وتجمع عند عبد العال أفندي من متجره ومن المنزل الموروث نحو ثلاثمائة جنيه، بنى منها زيادات على المنزل، ووسَّع متجره، وأصبح يحس كبرياء جديدة فلا يحيي أصدقاءه القدامى، ولا يتعرف إلا بالكبراء من الموظفين الذين يزيد مرتب أحدهم على عشرة جنيهات في الشهر، وكان يحس أنه يفضلهم؛ لأنه كان يكسب من المتجر والمنزل نحو عشرين جنيهًا في الشهر.

وكان الطفل زكي يقضي معظم وقته مع جدته التي كانت تدلله وتملؤه سرورًا وضحكًا وتمازحه وتدغدغه؛ لأن أمه كانت مشغولة بتدبير المنزل وبزيارات الصديقات.

وبقي إلى سن السادسة وهو لا يكاد يعرف أن له أمًّا غير الجدة الحبيبة إلى قلبه، وكانت الخادمة تذهب به كل أسبوع إلى متجر أبيه حيث كان يعطيه في عجلة القليل من الحلوى بعد أن ينهر الخادمة؛ لأنها جاءت به إليه، ثم يأمرها بالعودة إلى المنزل.

ولما بلغ السادسة أُدخل في الروضة، وفي هذه السنة نفسها ماتت جدته. وأحس الصبي فراغًا نفسيًّا لم يفهم منه غير الصبابة التي كانت

تحمله من وقت لآخر على أن يقعد سابحًا في فكره ينظر إلى غرفة جدته التي طالما لعب فيها ومرح وضحك.

وكان أبوه، الذي ترك المدرسة وهو في السنة الثالثة الابتدائية، يحقد على كل الذين استطاعوا إتمام دراستهم في حين هو عجز عن ذلك لفقر عائلته، وكان ينظر إلى الموظفين الذين هم دونه في الكسب نظرة الغيرة؛ لأنه هو بقال أما هم فموظفون محترمون.

وهذا الإحساس جعله يرصد اهتماماته وأطماعه في ابنه زكي، وأنه يجب أن ينشأ النشأة العظيمة حتى يصل إلى الجامعة ويخرج منها ويوظَّف، فكان هو وزوجته يتناولان هذا الصبي المسكين بعد عودته من المدرسة بالإلحاح عليه في «المذاكرة»، وكانت أمه تسأله إذا غاب عن ميعاد العودة من المدرسة بدقائق: أين كان، ولماذا تأخر. وكان الصبي يقعد إلى كتبه ودفاتره فيذاكرها، فإذا انتهى منها لم يجرؤ على تركها كي يلعب مع أولاد الشارع ولم يجرؤ على النوم، فكان ذهنه يسرح في خيالات لذيذة تعوضه من سأم المذاكرة، ومن هذه العقد المعذبة وهو مربوط إلى مكتبه الصغير لا يبرحه.

وكان أبوه عندما يحضر من دكانه يقول له، حتى وهو يراه قاعدًا مشغولًا بالمذاكرة: ذاكر، ذاكر، ذاكر، بل إنه حضر ذات مرة في الساعة الثامنة وكان زكي قد نجح في الشهادة الابتدائية والتحق بمدرسة ثانوية فوجده نائمًا فأيقظه وطلب منه أن يذاكر، ويذاكر، ويذاكر.

وقضى زكي السنوات الخمس بالمدرسة الثانوية وهو يذاكر وينجح وينجح، وكان أبوه ينظر بعين النمر إلى سلوكه، فلم يكن يسمح له بالدخول في دار سينمائية أو بالتخلف عقب المدرسة للعب، أو بالممازحة حتى وهو يتعشى مع والديه؛ ولذلك كان زكي أخيب الشبان في كل شيء إلا في المدرسة، وكان أيضًا مع نجاحه في المدرسة معطل الذكاء لا يعرف هل ثمن الحذاء عشرة جنيهات أم عشرة قروش، ولا يستطيع أن يتخيل أن أحدًا في سنه يستطيع أن يسافر وحده من القاهرة إلى الإسكندرية، ولم يعرف شيئًا من جمال البقول ونضرة الزرع والزهر. ورأى زكي بعض زملائه في المدرسة يدخنون ففعل مثلهم، ولما عاد إلى البيت أخبر أمه وهو يضحك بما فعل، ولكن هذه أخبرت والده الذي سلط عليه العصا الغليظة، وضربه ضربًا قاسيًا، ورآه أبوه ذات مرة وهو يقرأ قصة غرامية فنزعها منه وضربه بقسوة، ولم يكن يدخل البيت مجلة مصورة أو جريدة يومية أو قصة أو أي كتاب آخر غير الكتب المدرسية، ولم ينعم قط بنزق صغير أو كبير.

ونال زكي الشهادة التوجيهية وهو في حوالي السادسة عشرة وشرع أبوه يعده للدخول في كلية الآداب بالجامعة، وكان زكي كلما سمع عن الجامعة يضطرب؛ لأنها كلها مذاكرة، ولماذا لا يوظَّف من الآن ويستريح من المذاكرة.

وكان يلجأ إلى فراشه في شهور الإجازة ويفكر في هذا العذاب المنتظر من الجامعة، وفي الرقابة الجهنمية التي كان يمارسها أبوه عليه حتى يقضي

كل وقته في البيت في المذاكرة، فيحس كربًا كأن جسمه ينبض بالوجع، وكان قد عرف قبل سنتين العادة السرية، وكان كل ليلة تقريبًا يسرِّي بها عن كظمه وحبس عواطفه، وكان يتخيل الخيالات اللذيذة، ثم يفرج عن نفسه بهذه العادة وينام مستريحًا.

أما الآن وهو في السادسة عشرة فقد غمرته الخيالات الجنسية وانغمس لذلك في هذه العادة التي صار يمارسها في اليوم الواحد نحو سبع أو عشر مرات، وأرهقته هذه العادة حتى كان يلهث عندما يصعد على السلم، وشحب لونه وهمدت قواه، وكان يخفي كل ذلك ويخشى من هذا الإخفاء نفسه، ويحس خجلًا وإجرامًا كلما قعد إلى والديه أو أحد الغرباء، وكان عندما ينام يحلم أحلامًا لذيذة تتكرر كل ليلة بتنقيح خفيف أو بلا تنقيح، هي أنه يعود طفلًا يلعب مع جدته في الغرفة المقابلة، وكانت تحمله على ظهرها أو تطرحه وتدغدغه حتى يكاد يموت من الضحك، وتطورت الأحلام عنده بعد ذلك فكان يرى نفسه وهو على جواد مذهب السرج واللجام، ثم يطير الجواد به فوق القاهرة، وجدته تنظر إليه، وهو يقطع الجو. وفي الوقت الذي كان يستمتع الشبان في سنه بصبوات النزق في السهر ومعاكسة الفتيات بكلمات جنسية، أو كانوا يروِّحون عن سأمهم برؤية القصص السينمائية أو قراءة القصص الغرامية ويخرجون إلى الحقول حول القاهرة، أو يركبون البسكليت أو يقضون شهرًا على شواطئ الرمل وهم يغازلون البنات ويسبحون على الأمواج؛ في هذا الوقت كان زكي لا يعرف غير المذاكرة، المذاكرة، المذاكرة، وكان هو ينجح في المدرسة، وكانوا هم يفشلون. ولكنهم كانوا على صحة نفسية وعلى معارف دنيوية تفوق

ألف مرة معارفه المدرسية؛ لأنهم كانوا يستطلعون هذه الدنيا ويفطنون إلى كثير من أسرارها التي خفيت وغابت عن زكي. كانوا ينامون ولا يحلمون، أو يحلمون بما ينفع من اقتحامات أو مصادفات محببة بالفتاة التي تعقبوها وصدت عنهم بعد كلمة قاسية ما كان ألذها وقعًا على نفوسهم. وبالسباحة، وبالسباق على البسكليت، وبالقصة التي قرءوها أو رأوها على الشاشة السينمائية وبالبذلة الجديدة وبالفسحة الجميلة في الريف.

وكان بعضهم يمارس العادة السرية ولكن في تحفظ، مرة أو مرتين كل عشرة أيام، بل لقد قص أحدهم أنه منذ عرف فتاته التي يرافقها وينفق عليها كف عن هذه العادة لقذارتها وبعدها عن الشهامة، وكان بعضهم يدخن، كما أن بعضهم قد عرف الخمر، ولكنهم كفوا عن التدخين والخمر؛ لأن المتع الأخرى كانت أجمل وأروع. كانت صحتهم النفسية عالية، صحة الشباب وغرائزه، صحة النشاط الجنسي السليم والذهني السليم، وكانت الدنيا جميلة في أعينهم تحوي جمال الشفق، وجمال الشعر، وجمال القصة، كما تحوي جمال الفتيات، وزهوة البذلة الجديدة ومرح السباحة على الماء ولذة الحديث بالنكات المشتبهات مع الإخوان، وكانوا يستمتعون بالوجبة الدسمة والحلوى المريئة، جسم سليم ونفس سليمة.

وكانوا يتأخرون في دروسهم أو قد يساعدهم الحظ فلا يتأخرون، ولكن المدرسة لم تكن قط عذابهم كما كانت عند زكي الذي سبقهم؛ لأنه كان يكب على دروسه ولا يعرف أية متعة يفرّج بها عن صعوباته غير أحلام اليقظة وأحلام النوم؛ ولذلك كانت نفسه مريضة.

وقد لحظت أمه أعراضًا فيه فتحت بصيرتها – بصيرة الأم – إلى أنه ليس على ما يجب أن يكون؛ فإنه في الصباح لم يكن يترك الفراش بل كان يبقى منسطحًا وعيناه إلى السقف، ولم يكن ينهض لطعام إذا دُعي، فإذا أفطر عاد إلى الفراش وعيناه إلى السقف، فإذا دُعي إلى الغداء نهض وتغدى وهو سارح الفكر لا يأكل شيئًا غير الطبق الذي أمامه، ثم يعود إلى السرير فينسطح وعيناه إلى السقف.

وكانت أمه تتأمله وتحاول أن تجره إلى الحديث، فلم يكن ينظر إليها وهي تحدثه، وانتهت أمه إلى القول أن هذه الحال ليست طبيعية.

أي أيتها الأم المسكينة إنك لم تكوني تدرين أنه كان ينتهك نفسه في اليوم، وهو حبيس غرفته، نحو سبع أو عشر مرات، ولم تكوني تدرين أنك أنت وزوجك السبب في هذا، بحبسه ومنعه من أي نشاط إلا المذاكرة، ذاكر، ذاكر، ذاكر. وأنه لم يعرف أساليب التفريج الأخرى التي كان يمارسها الشبان، والصداقة والمزاملة مع إخوانه، والفسحة المارحة في شارع فؤاد، والاصطياف الجميل على الشواطئ، وقراءة المجلات والجرائد. لقد منعناه من كل ذلك فانحجز في الحجرة وانطوى على نفسه يأكلها ويفنيها.

وتمادى زكي في غياب الذهن والانسطاح على الفراش والاستسلام للأحلام، وقد أصبحت أحلام النوم عن جدته، ولعبه، وحديثه معها، والجواد الذي يركبه فوق السحاب في القاهرة، أحلام يقظته أو ما كان يظن أنها يقظته؛ لأنه لم يعد يقظًا؛ إذ كان في غيبوبة ذهنية دائمة.

ورويدًا رويدًا أصبحت «لا» أو الصمت الذي يدل على معناها شعاره ومفتاح وجوده في الدنيا. قم كل: لا. قم البس ملابسك: لا. قم اغسل وجهك: لا. أو صمت تام لا يرد ولا ينبس بكلمة. حياة محبوسة، عواطف مكظومة، انحصار الذهن في المذاكرة الكريهة، انتفاء التفريج أو التنفيس. ماذا يفعل إزاء هذا كله؟

يفر من هذا الواقع المتعب المضجر المؤلم إلى الخيال، وأي خيال عنده أجمل من ذكرى جدته ولعبها وحديثها معه؟! لقد عاد زكي فتى في الرابعة يعيش ليتحدث فقط إلى جدته ويبعد عنه رؤية الدروس والأم والأب القاسيين. والواقع أن أمه كانت تقف أمامه وتتضرع إليه كي ينهض ويأكل، فلا يرى وجهها ولا يسمع كلامها، وهو سعيد بهذا الذي فيه بخيالاته، ولكنه لم يعد إنسانًا؛ إذ هو استحال إلى شبح إنسان فقط، يجتر خواطره وأحلامه عن السنوات الخمس التي قضاها مع جدته قبل أن يبدأ البرنامج الذي وضعه له أبوه كي يدرس ويذهب إلى الجامعة ويخرج منها ويصبح وزيرًا أو وكيل وزارة.

وجاء الطبيب فطلب نقله إلى مستشفى الأمراض العقلية، إلى المارستان. وصُعق الوالدان بهذا القرار، ورفضت الأسرة نقل زكي إلى المستشفى وتعلقت الأم بابنها واحتضنته وهي تلهث من الوله، ووقف الأب وقد جمُد عقله وعميت بصيرته لا يدري علة كل هذا الذي حدث.

وقال الطبيب: هذا المرض هو الشيزوفرينيا، هو جنون يصيب الشبان المضغوطين الذين لم يطيقوا الحياة الواقعة ففروا منها إلى الخيالات

والأحلام، هو الآن يحلم ويتخيل، وهناك أمل بالشفاء، ولكنه أمل ضعيف، وفي المستشفى مرضى مضى عليهم خمسون سنة بلا شفاء.

وتركهم الطبيب بعد أن أفهم الأبوين أن زكي في «نعيم مقيم» يلتذ خيالاته وتأملاته.

سيكلوجية الشيخوخة

النصيحة العامة المألوفة للشباب هي أن يأخذوا بحكمة الشيوخ في التبصر والاعتدال والتأمل والبعد عن الرعونة والمغامرة، وكل هذه بلا شك تُعد فضائل في بعض الأحوال، ولكنها ليست كذلك إذا أخذنا بحرفيتها في كل الأحوال؛ فإن هناك من المواقف ما يحتاج إلى المغامرة التي تشبه الرعونة. ولنضرب مثلًا بالثورات التي لا يتسع الوقت فيها للاعتدال المسرف أو التبصر البعيد. وكثير مما نعزوه إلى الشيخوخة من الفضائل إنما يُشتق في النهاية من الركود والجبن، كما أن كثيرًا من رعونة الشباب أو مغامراته إنما يُشتق في النهاية أيضًا من النشاط والشجاعة.

وعلى كل حال يبدو لي كأننا قد أكثرنا من النصح للشباب بالأخذ بحكمة الشيوخ، وقد آن لنا أن ننصح للشيوخ بأن يأخذوا بحكمة الشباب. وأعظم ما يبرر لنا هذا الانقلاب أن الشيوخ السعداء هم الذين يحتفظون بمقدار كبير من نشاطهم وشبابهم، وإن يكن نشاط الذهن وشباب النفس فقط. في حين أن الذين يكابدون أحزان الشيخوخة وأعباءها إنما هم الذين قد شاخت نفوسهم وركد نشاطهم.

ولكن الذي يجب أن نذكره أن النفس والذهن، كلاهما يحتاج إلى نشاط الجسم وحيوية الأعضاء؛ إذ ليس مفر من أن تركد نفوسنا إذا ركدت أجسامنا.

قد يُقال إننا، في الشيخوخة، نستطيع أن نهنأ بالحياة التأملية، نقرأ ونفكر ونتفرج. وليس شك أن هذا كله حسن؛ فإن المداومة على الاهتمام بالصحيفة اليومية في سن الثمانين أو التسعين تبعث النشاط في الذهن، وكذلك الشأن في القراءة؛ أي الدراسة، ولكن حياة التأمل هي في النهاية حياة الركود، متى ركدنا بالجسم ركدنا أيضًا بالذهن.

وهنا حكمة الشباب التي يجب أن يأخذ بها الشيوخ، وضرورة النشاط بحيث تبقى أعضاء الجسم في حركة العمل التي تتطلب السعي على القدمين والذهاب والإياب وتحمل المسئوليات اليومية أمام المكتب أو غير ذلك من ضروب النشاط في النفس والذهن، فتبقى الأهداف القديمة والمطامع السالفة والعادات المألوفة قبل الستين والخمسين من العمر ماثلة حية غير معطلة.

إن صاحب المتجر أو المكتب أو المصنع الذي يكف عن الذهاب إلى مقر عمله في الصباح، عندما يظن أنه قد بلغ سن الشيخوخة، يشرع فعلًا في الشيخوخة، ويبدأ في حياة التفرج والتأمل الراكدين بدلًا من حياة العمل والتفكير النشيطين، وهو يكاد ينقطع عن الدنيا بأهدافه وإحساسه. ومثل هذه الحال تملأ نفسه غمًّا وأسفًا، وهي جديرة بأن تنتهي به إلى ألوان مختلفة من أمراض النفس، وأولها أن يجتر ماضيه اجترارًا فيذكر ويعيد الذكرى بما حدث له قبل نصف قرن، وقد يذكر خصوماته القديمة فيبتئس بها ويتعس.

وكثيرًا ما ترى هؤلاء الشيوخ وقد آثروا العزلة والانفراد، يكرهون

الاجتماع والزيارات، وعندئذٍ ينكفئون على أنفسهم ويحدِّثون أنفسهم بكلمات مهموسة أو مجهورة. ونحن نعزو ذلك فيهم إلى خرف الشيخوخة، وما بهم من خرف سوى أنهم معطلون جسميًّا فأصبحوا معطلون ذهنيًّا.

إن للعمل اليومي في مواعيده — من طاقة واستعداد، ودراسة ومسئولية — نظامًا يحمل رجل السبعين والثمانين على أن يأخذ في حياته بنظام آخر ينأى به إلى الاستهتار في الطعام والشراب؛ فهو يأكل بقدر، وهو يدخن أو يشرب القهوة أو الشاي بقدر. يلحظ في كل ذلك مصلحة عمله وقدرته، وهذا بخلاف الشيخ الذي عطل عن العمل فإنه يستهتر في طعامه وشرابه؛ إذ ليس عنده من الواجبات ما يحمله مسئوليات تحثه على الاحتفاظ بصحته ويقظة ذهنه وسلامة عضلاته.

ومن هنا سرعة الانهيار الذي نجده في موظفي الحكومة الذين يُحالون على المعاش في سن الستين؛ فإن هذه السن تُعد في أيامنا من أطوار الشباب التي ننتظر فيها الصحة والنشاط، ولكن الموظف الذي وجد نفسه فجأة قد انقطع عن السعي كل صباح إلى مكتبه، وأنه لا يستقبل من يومه عند يقظته سوى الركود أو القعود على المقهى للتمطي والتثاؤب وحديث القيل والقال مع المعارف والأصدقاء، أو «قتل» الوقت بألعاب الحظ السخيفة، هذا الموظف لن تمضي عليه شهور بل أيام حتى يحس بنهاية حياته وأنه «زائد» على المجتمع يستهلك ولا ينتج، فتنهار نفسه ثم ينهار جسمه.

وأنا أنصح لموظفي الحكومة لهذا السبب بأن يستعدوا لمعاشهم بأن

يتعلموا أو يمارسوا هواية ما منذ سن الأربعين، حتى إذا بلغوا الستين وجدوا فيها عوضًا عن وظيفتهم السابقة، فيبقى كل منهم على نشاطه السابق له أهداف يحيا لها وبها.

يجب ألا تعني كلمة معاش مماتًا؛ إذ هي تحمل معنى العيش؛ أي البقاء، ولا بقاء بغير عمل وسعي وحركة واشتباك في شئون المجتمع والإنسانية والسياسة والإنتاج؛ أي يجب على الموظف أن يهتم بالدنيا والناس والأشياء وأن تتعدد اهتماماته، ويكون منها اهتمام مفرد هو هوايته الخاصة التي يمارسها لا للتسلية ولكن للارتقاء والإنتاج.

يجب على الموظف ألا يرضى بأن يكون متفرجًا في الدنيا فقط بعد أن يبلغ سن المعاش.

ومع أني أعتقد أن هناك تسعين في المائة على الأقل من الموظفين الحكوميين يمكنهم أن ينهضوا بأعمالهم ويؤدوا واجباتهم إلى سن السبعين بل أكثر؛ فإني لا أستطيع أن أقول بهذا الرأي؛ لأن شبابنا في حاجة إلى الوظائف الحكومية؛ إذ إن أعمالنا الحرة لا تستوعبهم، والأعمال الحرة هي الصناعة والتجارة وقد حرمناهما إلى وقت قريب.

وهناك ميزة للعمل الحر على الحكومي؛ لأن العامل الحر، سواء أكان موظفًا أم مالكًا، يمكنه أن يبقى عاملًا إلى ما بعد الستين؛ ولذلك يحتفظ بصحته النفسية والجسيمة؛ لأن تنظيم عمله يؤدي، كما قلت، إلى تنظيم حياته، وهو يبلغ الشيخوخة دون أن يشيخ، أو هو، بكلمة أخرى، شيخ

ولكنه ليس شائخًا.

ومع التناقض في هذا التعبير نستطيع أن نقول إننا وجدنا في اختباراتنا شبانًا في السبعين والثمانين، بل أحيانًا في التسعين، ينهضون في الصباح المبكر ويؤدون الأعمال التي تحتاج إلى قوة العضلات وصحوة الذهن، وهم في العادة نحفاء، بل إني لا أذكر أني رأيت رجلًا سمينًا قد بلغ التسعين.

ومن أعظم الأمثلة الحية على شباب الشيوخ الأستاذ أحمد لطفي السيد؛ فإنه يوشك على التسعين ومع ذلك يحتفظ بنشاط ذهنه ويؤدي عمله الحكومي، يقصد إليه كل صباح ويعود منه بعد الظهر لا يبدو عليه أي عناء أو إرهاق، وهو من حيث الجسم لا تكاد أعضاؤه تتماسك، ولكن نفسه قوية عضلية، وهي تشع صحتها على الجسم. وإني أعرفه منذ أكثر من خمس وأربعين سنة، ولا أذكر أنه سمن قط أو استكرش؛ إذ هو كان على الدوام نحيفًا إلى حد الهزال، وقد ساعدته هذه النحافة على استبقاء شبابه، كما أن عاداته في العيش معتدلة بعيدة عن الإسراف الذي كثيرًا ما يرهق الصحة الجسمية، ولكن نحافة جسمه واعتدال عاداته ليسا شيئًا إلى جنب نشاطه الذهني، وأنه يعمل كل يوم عملًا يحمله على نظام الحركة والتفكير في المسئوليات، وهنا الحياة الحية.

ولي صديق آخر في منتصف العقد التاسع من عمره هو الأستاذ عزيز خانكي؛ فإنه يقصد إلى مكتبه كل يوم ويؤدي أعماله في مواعيدها، وهو نشيط الذهن؛ لأنه نشيط الجسم، يحضر في المحاكم ويدرس القضايا ويؤلف الكتب ويقرأ ويناقش ويشتبك في شئون المجتمع، هو شاب لم يشخ.

ومع كل هذا الذي ذكرت عن ضرورة النشاط الجسمي والذهني وضرورة القيام بعمل يستتبع المسئوليات ويعين المواعيد، أحب أن أنبه إلى أن إيقاع الشيخوخة يجب أن يكون أبطأ من إيقاع الشباب. فإذا كان الشباب يستطيع الاستغناء عن راحة القيلولة مثلًا نحو ساعة بعد الظهر فإن الشيخ يحتاج إلى هذه الراحة أكبر الحاجة.

ولكن الراحة يجب أن تكون ساعة واحدة في النهار وليست ٢٤ ساعة في اليوم.

سيكلوجية الشيخوخة أيضًا

ظهر في لندن كتاب جديد بعنوان «كيف تستقبل وتبدأ حياتك» للمؤلف إليانور بروكيث.

واسم الكتاب يحمل دلالة جديدة لعصرنا هي أن الناس كانوا، قبل نحو نصف أو ثلث قرن، يستقيلون من أعمالهم أو وظائفهم عندما يبلغون الستين أو الخامسة والستين؛ وذلك لأنهم كانوا يحسون ضعفًا أو عجزًا ينقص كفاءتهم للعمل أو تأديتهم للوظيفة، وكانوا يكفون عندئذٍ عن العمل أو يتركون الوظيفة وهم على إحساس بأنهم قد شرعوا يتهيئون للموت الذي قد يدركهم بعد خمس أو ست سنوات.

وكان هذا الإحساس صادقًا ينهض على المشاهدة؛ إذ كان معظم الناس يموتون قبل السبعين، هذه السن التي عدتها التوراة أقصى ما يمكن أن يطمح إليه الرجل السعيد في هذه الدنيا كما قال سليمان الحكيم.

وعلى هذا الأساس سنت جميع الحكومات المتمدنة – ونعني حكومات الأمم الصناعية وحدها – قوانين تنص على أن كل مَن يبلغ سن الستين أو الخامسة والستين له الحق في الحصول على معاش طيلة حياته يترجح بين سبعة وعشرة جنيهات في الشهر، سواء أكان رجلًا أم امرأة، وزادت بعض الحكومات مقدار هذه المعاشات حتى إنها لتبلغ نحو أربعين أو خمسين جنيهًا في الشهر في بعض الولايات المتحدة أو بعض الحكومات

الأخرى، مثل حكومات أستراليا أو زيلندا الجديدة أو كندا.

يحصل الرجل أو المرأة منذ سن الستين أو الخامسة والستين على معاش شهري إلى أن يموت في الثمانين أو التسعين أو المائة دون أن يُطالب بأي عمل، ولكن يجب أن نذكر أن هذا يحدث فقط عند الأمم التي اعتمدت على العلم والصناعة والاختراع والابتكار واقتحام المستقبل، الأمم الثرية الصناعية.

ولكن هنا المشكلة.

فإن إنجلترا شرعت تنفذ معاشات الشيخوخة منذ سنة ١٩٠٩ حين كان الناس يعتدلون في التعمير ويموتون حوالي السبعين، أما الآن فإنهم يسرفون في التعمير، ويصلون إلى الثمانين والتسعين والمائة بلا أقل حياء من وزير المالية.

فلم يكن ينفق من ميزانية الدولة على هذه المعاشات في ١٩٠٩ سوى نحو ٢٠ مليون جنيه، أما الآن فإن المسنين يكلفونها مئات الملايين من الجنيهات. ثم هم في ازدياد؛ لأن متوسط الأعمار كان حوالي عام ١٩٢٠ لا يزيد على ٤٠ أو ٥٠ سنة، أما الآن فقد ارتفع في إنجلترا إلى ٦٨ للرجل و٧٠ سنة للمرأة.

لماذا يعيشون ويبلغون من العمر أرذله؟!

ومن أين تأتي الحكومة الإنجليزية، وغيرها من حكومات الأمم

الصناعية العلمية الثرية، بالمال كي تقدمه هدية آخر كل شهر للمئويين من المسنين ومن دونهم ومن فوقهم ممن تجاوزوا الستين.

ما أغرب هذه المفارقة! أوروبا وأمريكا تعانيان مشكلة الصحة والحياة الطويلة، وآسيا وأفريقيا تعانيان مشكلة المرض والحياة القصيرة.

إنها لمقارنة، بل مفارقة محزنة تلك التي نراها في مخيلتنا بشأن المسنين في مصر والمسنين في إنجلترا أو أي قطر صناعي آخر.

إن الموظف المصري يستقيل من وظيفته وكأنه قد استقال من الحياة، فهو يمضي ما بقي من السنوات القليلة من عمره وهو في تخبط. يقعد على المقهى قبل الظهر، ويشرب عشرات الفناجين من القهوة، ويدخن في إسراف، ويتحدث مع أصدقائه عن ذكرياته قبل ٤٠ أو ٥٠ سنة كأنه هو نفسه قد أصبح جزءًا من الماضي، وهو لا يشترك في أحاديث السياسة الحاضرة؛ لأنها تنطوي على سياسة المستقبل الذي يحس أنه غريب عنه، وهو ينام بعد الظهر فإذا أفاق فكَّر في المقهى، وقد يشرب الخمر ويسرف فيها؛ لأنها تنسيه حاضره التعس.

رجل المعاش نعرفه كلنا في مصر.

هو سمين مترهل مستكرش سيء العناية بملابسه، مشعث الشعر قد نبتت أعجاز لحيته، وهو يشكو.

يشكو الروماتزم، والكليتين، والإمساك، والقلب.

ويشكو سأمه من الحياة كأنه ليس له مكان فيها.

ويشكو سوء المعاملة التي يلقاها من زوجته وأبنائه، إنه زائد غير نافع.

ويشكو إسرافه في التدخين وإسرافه في الطعام وعجزه عن الاعتدال.

ويشكو استهتار الشباب والفتيات وأنهم لم يعودوا يبالون بالتقاليد حتى إن إحدى الفتيات في أسرته قد صرَّحت بأنها لن تتزوج إلا من شاب تحبه، أما هو ففي أيام شبابه لم يكن يعرف كلمة الحب، وقد اختارت أمه له زوجته، وهو حين ينهض من المقهى ويذهب إلى منزله يسير مطأطئًا كأنه يمشي إلى جنازته وقد تلفف بكفنه.

هو ميت قد تأخر دفنه، ولذلك لا يستحق معاشًا؛ إذ هو يخدعنا بأنه حتى مع أنه ليس كذلك.

ولكن مع هذه الكلمات والأفكار القاسية نحس رحمة نحوه؛ ذلك أن أسلوب حياته الذي عاش به في شبابه قد لزمه بعد ذلك في شيخوخته، وكأن العمل الذي ينتجه أو الوظيفة التي يؤديها يخفيان عنه وعنا تفاهته، ولكنهما كانا يشغلانه فيجد الاهتمام والالتذاذ في الحياة.

أما الآن، بعد زوال العمل والوظيفة، فإنه أمامنا، تافه أمام نفسه، وهذه هي مأساته.

قارن رجل المعاش هذا المصري برجل المعاش الإنجليزي مثلًا.

فإن هذا الثاني قد اتخذ أسلوبًا للحياة أيام شبابه لزمه بعد ذلك مدة شيخوخته، فوجد في سن السبعين والثمانين اهتمامات والتذاذات ورياضات لا يجدها زميله في مصر.

فهو أيام شبابه تعوَّد الرياضة؛ ولذلك هو يلعب التنس بقوة العادة وهو في السبعين.

وفي أيام شبابه اعتاد المطالعة وشراء الكتب والاهتمام بالآراء ومناقشة الأفكار؛ ولذلك هو في الشيخوخة، بقوة العادة أيضًا، يمارس كل هذه الأشياء في لذة ونشاط.

وفي شبابه كان يقرأ الصحف ويعرض لبرامج الأحزاب ويناقش السياسة الداخلية والخارجية؛ ولذلك هو في شيخوخته يمارس السياسة ويشترك في الأحزاب ... وفق ما تعوَّد أيام شبابه.

كل هذه الشئون تملأ فراغه وتشغل وقته واهتمامه؛ ولذلك هي تستبقي شبابه. فالشيخ الإنجليزي في الثمانين لا يركد ولا يستسلم للكسل؛ لأن شخصيته أيام شبابه هي نفس شخصيته أيام شيخوخته، بحوافزها ومطامعها وعاداتها.

إذا كانت عاداتنا في الشباب سيئة فإنها سوف تكون أسوأ في الشيخوخة، ومتاعب المسنين عندنا إنما ترجع في الأغلب إلى أن شخصياتهم التي تكونت في شبابهم كانت ولا تزال دون الوفاء بحاجاتهم النفسية والروحية.

هناك وحدة سيكلوجية بين الشباب والشيخوخة.

أرجو القارئ ألا يفهم مما قلت أني أعلل جميع عاهات الشيخوخة عندنا، سواء أكانت نفسية أم ذهنية أم جسمية، بأسلوب الحياة الذي يختاره كل منا.

ذلك أن هناك ظروفًا مدنية وثقافية واجتماعية تتعسنا في شيخوختنا، كما أن ظروفًا أخرى مما تضارع ظروفنا تسعد الأوروبيين والأمريكيين.

فإننا في مصر مثلًا نمرض أكثر من الأوروبيين؛ لأن مدننا قذرة؛ ولأن طرقنا في طهو الطعام سيئة؛ ولأننا فقراء لا نحصل على مقدار البروتين الذي نحتاج إليه في طعامنا.

ومرجع ذلك كله إلى الثراء والتمدن، ثم إلى الهندسة التي جعلت المدن نظيفة تجري فيها شرايين المياه المطهرة، ثم إلى الطعام الوافي الذي نعرفه عند الإنجليز أو الأمريكيين حين يأكلون اللحم ثلاث مرات في اليوم.

فقرنا يتعس شيخوختنا. وليس الشيخ المسن مسئولًا عن هذا الفقر، وإنما تعود المسئولية هنا إلى أولئك المستعمرين والمستبدين الذين حتموا علينا الفقر بأن حظروا علينا الصناعة ونهبوا كنوزنا الزراعية والمعدنية.

وكذلك تقدم الطب في أوروبا حتى كاد يشفي جميع الأمراض الميكروبية، وأوشك على أن يشفي أيضًا جميع الأمراض الانحلالية، فطالت الأعمار واستبقت الشيخوخة مقدارًا كبيرًا من صحة الشباب ونشاطه.

تأمل أيها القارئ كيف اختلفنا.

نحن نعاني في مصر مشكلة المرض والأعمار القصيرة.

وهم يعانون في أوروبا وأمريكا مشكلة الصحة والأعمار الطويلة.

ذلك أنهم يؤدون معاشًا لكل من تجاوز الستين أو الخامسة والستين.

وقد كانوا يؤدون هذا المعاش في إنجلترا لنحو خمسة ملايين مسن ولكن الصحة تتقدم؛ ولذلك لن تمضي سنوات حتى يبلغ عدد هؤلاء المسنين عشرة ملايين يحتاجون إلى المعاش.

وقل مثل هذا في سائر الأقطار المتمدنة.

أليست هنا مشكلة؟!

حبذا هذه المشكلة نراها في بلادنا. نعم، ولكن ليس الآن ونحن في فقرنا الحاضر؛ إذ لن نستطيع أن نؤدي المعاشات السخية للمئويين ومن فوقهم ومن دونهم.

قلت إننا لن نسعد بالشيخوخة إلا عن طريقين:

الطريق الأول: أن نصبح أمة عصرية صناعية متمدنة، فيتوافر الثراء، ونحصل به على الحسن أو الأحسن في الطعام والمسكن والهندسة المدنية؛ لأن المدينة النظيفة لا تقل قيمتها في الصحة العامة عن المسكن النظيف، بل لعلها تزيد، وهذا كله من واجبات الدولة والمجتمع.

والطريق الثاني: هو الواجب الشخصي؛ أي ما يقوم به الرجل أو المرأة نحو نفسه حتى يعمر العمر الطويل.

ولكن العمر الطويل لا يعني أن نزيد الحياة سنين، وإنما هو يعني أن نزيد السنين حياة؛ إذ ليس هناك سوى العذاب والهوان في أن نمضي شيخوختنا مع الشلل أو الروماتزم أو الأرق أو العمى أو الصمم.

وأمراض الشيخوخة ليست ميكروبية وإنما هي انحلالية، حين تعجز الكليتان أو القلب أو الكبد أو الشرايين عن التأدية الحسنة لأعمالها. ومن شأن هذه الأمراض الانحلالية أنها تتسلل صامتة خفية، وهي في كل حالة ثمرة أو ثمرات لعادات سيئة في العيش، مثل النهم إلى الطعام أو الإفراط في الجهد إلى حد الإرهاق أو السهر الطويل أو التعرض للبرد أو نحو ذلك.

ونحن بالطبع سنموت آخر العمر بأحد هذه الأسباب أو بغيرها، فليست هناك وقاية تامة من الانهيار الأخير ثم الموت، ولكن يجب ألا تطول مدة الانهيار كما يجب أن نصل إلى التسعين أو المائة ونحن في صحة وشباب.

وأحيانًا أتأمل الصحة والمرض في الشيخوخة فأنتهي إلى الإحساس بأن صحة المسنين هي حكمة؛ أي إنهم كانوا حكماء في عيشهم أيام شبابهم وكهولتهم. فاتجهوا اتجاهات معينة في الشباب صانت صحتهم ثم لزمتهم هذه الاتجاهات في الكهولة والشيخوخة فصانتهم بعد السبعين والثمانين.

وأعظم ما يسعدنا في الشيخوخة أن نتعلم في شبابنا كيف نشغل فراغنا بغير العمل الذي نرتزق منه؛ أي بهواية معينة، وقد تكون هذه الهواية هي نفسها العمل الذي نرتزق منه. وهنا السعادة العظمى.

حياتهم تافهة

من أعظم الدراسات التي حفلت بها حياتي واتسع بها وجداني صناعة التطور، فإنها أكبرت في نظري من شأن الإنسان وجعلتني أنظر إلى تاريخه الماضي وأستطلع في ضوئه تاريخه المستقبل.

وأمتلئ بذلك إحساسًا بعظمته وأتفاءل بتطوره القادم. وأكثر من هذا، أن التطور جعلني أحس خطورة حياتي وقيمتها العظيمة، وأقارن بين هذه الحضارة التي اخترناها منذ خمسة عشر ألف سنة وبين حياة الغابة حين كنا أحرارًا نصيد السمك أو نقتل الحيوان أو نقلع الجذور، ونجول في أنحاء العالم، نصطدم بالأسد أو الأفاعي أو سائر الوحوش ونعيش في مخاطرات متوالية تذكي عقولنا وتحد من عيوننا.

كنا وحوشًا أحرارًا على وجدان بالأخطار وعلى مسرات متوالية بالانتصار عليها أو بتخطيها. أما الآن فنحن، بعد اكتشاف الزراعة على النيل منذ عشرة آلاف سنة، قد استنمنا إلى نظام يجعلنا آمنين من الفزع، نحصل على اختباراتنا من الكتب بدلًا من الطبيعة، بل إننا بالزراعة قد أحلنا الطبيعة إلى حقول مالية تنتج القمح والقطن، كأننا نحاسبها بالقرش والمليم.

ولكني حين أتأمل حياة بعض الناس في هذه الحضارة أجد حقارة أو تفاهة تجعلني أحس أن الغابة القديمة بكل ما فيها من أخطار كانت أشرف

وأدعى إلى نشاط الفكر والجسم من حالهم الحاضرة، وأن الحضارة عندهم ليست كسبًا وإنما هي خسارة وخسة وضعة.

لقد قلت إننا في الحضارة نحصل على اختباراتنا من الكتب، ولكن هؤلاء القارئين للكتب هم القلة، أما الكثرة فيعيشون بلا كتب، ويضيق وجدانهم بحيث لا يتجاوز أحيانًا البيت الذي يسكنونه أو الشارع الذي يسيرون عليه من المنزل إلى المكتب.

عرفت في ١٩٢٠ بوابًا لمبنى كبير به نحو ثمانية مساكن، وكان وقتئذٍ شابًّا لا يتجاوز الخامسة والعشرين، وقد قضى إلى الآن أكثر من ثلاثين سنة وهو على باب هذا المبنى من الصباح حتى المساء، لا يزيد عمله اليومي على كنس السلم وعلى إجابة الأغراب عن السكان، وهل هذا الساكن قد خرج أو لا يزال بالمسكن، وكلما مررت به أقول لنفسي ألف مليون سنة.

أجل، إن هذا البواب قد احتاج إلى ألف مليون سنة حتى أخرجته الطبيعة إنسانًا له رأس يحتوي تسعة آلاف مليون خلية للتفكير، ولكنها جميعها تقريبًا معطلة، مع أنها كان يمكن أن تحل مشكلات أينشتين أو تكشف عن دواء جديد للسرطان أو تهتدي إلى تأليف جديد للانحلال والتكون في المادة.

يعيش هذا البواب حياة بلا قصد، ليس فيها برنامج، وهو من حيث الوجود البشري من يده إلى فمه، لا يعرف أنه في أفريقيا، وأن القارات

خمس، وأن الشمس هي التي تجعل النباتات تنمو وتقيت القاهرة بالبقول كل يوم. وقد كنت أحب أن أؤلف قصة عن حياة هذا البواب، قصة حقيقية، كيف يقضي يومه ثم كيف ينام في ليله وما هي أحلامه وعدد الكلمات التي يعرفها ويؤدي بها أفكاره، وظني أنها لا تزيد على مائتي كلمة، وهذه القصة ستكون بالطبع مملة غاية الملل عند القراء، ولكن إذا كان سرد القصة مملًّا فكيف تكون العيشة الأصلية لهذا البواب، وأي ملل يجب أن تحتوي.

ولو أن هذا البواب كان يعيش في الغابة، لكان يظفر من الاقتحامات والانتصارات والآلام والأحزان بما كان يملأ حياته ويجعله يعيش ناشطًا متحمسًا كأنه على مسرح يمثل درامة حافلة بالأحداث والعبر، وكان ذكاؤه يحتد وعضلاته تشتد، ولكنه على باب المبنى قد ترهل جسمًا وعقلًا.

وقد تفهمت حياته حتى لا أكاد أصدق أن الطبيعة قد احتاجت إلى ألف مليون سنة لتخرجها إنسانًا سويًّا.

وليست العبرة بفقره لأنه ليس فقيرًا، بل الأغلب أن آلافًا من العمال في المصانع والمكاتب أفقر منه، ولكنهم أوسع وجدانًا وأعمق فهمًا لهذه الدنيا منه، فإنهم يختلطون بزملائهم أو بكبرائهم، ويقرءون أكاذيب الصحافة وحقائقها، ويتحدثون عن الحرب القادمة، ويسهرون على القهوة، ويشربون الشاي مع إخوانهم، ويلعنون التجار الجشعين، ويتشاكون عن الغلاء، وأحيانًا يسكرون ويفرجون.

أما هذا البواب فإننا قد أحلناه على باب المبنى إلى حيوان أو جماد، وهو قانع بحياته، ولكن هذه القناعة هي إجرام في حق البشر، في حق التطور؛ لأن حياته تافهة، حياته بلقع.

وقبل نحو ثلاثين سنة، قبل أن يعم استعمال الطاقة الكهربائية، كانت مناجم الفحم في إنجلترا تستخدم الجياد في نقل الفحم داخل المنجم؛ فكان الجواد يُؤخذ من المرعى الأخضر، حيث كان النسيم يداعب مَعْرَفته، أو كانت الريح تهب عليه وتهزه في غضب، وكان يرى الشمس وظلام الليل، ويجري ويمرح ويرفس في حياة نشطة. وكان يرى الأنثى ويصبو إليها، وكان يجر عربة من قرية إلى أخرى أو يمتطي صهوته صاحبه. ولكنه كان، بعد أن ينزل إلى جوف المنجم، يبقى فيه في الظلام الدائم نحو عشرين سنة لا يرى نور الشمس، ولا يصعد على سطح الأرض إلا بعد أن يموت.

وهذه حياة تبعث السخط والغضب على الذين كانوا السبب في حبس الجواد. ولا يمكن مؤلفًا أن يقص على القارئ قصة هذا الجواد المسكين؛ إذ إن القصة يجب أن تسرد لنا حياة أو حيوات معينة. ولكن هذا الجواد يموت منذ نزوله في المنجم؛ إذ هو لا يحيا، ولكنه يجر عربة الفحم فقط.

ولكن أحيانًا أتأمل حياة بعض الناس فأجد الفرق بينها وبين حياة هذا الجواد ليس عظيمًا. فإن مساحة المنجم الذي كان يعمل فيه هذا الجواد كانت نحو ميل مربع، ومساحة الميدان الذي يعمل فيه بعض الناس لا تزيد على ثلاثين أو أربعين مترًا مربعًا، وهم بهذا الاعتبار موتى. ولو

أردت أن أقص على القارئ حياة واحد منهم لما قدرت؛ لأنها حياة الأكل والنوم وكنس البيت والعناية بالطفل.

أجل هذه هي حياة بعض نسائنا في بعض قرانا في الصعيد؛ فقد لقيت بعض إخواننا الصعايدة الذين كانوا يفخرون بالعرض والشرف والطهارة؛ وذلك لأنهم قد اعتادوا أن يجعلوا الزوجة تبقى بمنزلها منذ عرسها إلى يوم وفاتها، حتى لا ترى رجلًا ولا يراها رجل، وزوجها يحيلها بهذا الحبس إلى مكانة دونها مكانة البواب الذي أشرت إليه؛ لأن البواب يرى العابرين في الطريق، وقد تقع حادثة أو ينشب شجار، أو يقعد إليه زائر أو يتحدث إلى ساكن. أما هذه المسكينة فتبقى طيلة حياتها وهي محبوسة بالمنزل، وظني أنها تختجل بعد سنوات من هذا الحبس، ولا يبقى لها ذكريات تبعث على التفكير سوى أيام طفولتها وبنوتها.

وظني أننا يجب أن نسن قانونًا نجبر فيه الأزواج الحابسين لزوجاتهم على أن يأذنوا لهن بالخروج من المنزل مرة كل يوم.

وإني لأتساءل: هل احتاجت الطبيعة إلى ألف مليون سنة من التطور كي تنتهي منه إلى حبس إنسان مدى حياة الزوجية بدعوى العرض والطهارة.

البواب، وهذه الزوجة الصعيدية، كلاهما يعيش حياة تافهة، حياة بلقع. تنخفض التفاهة عندهما إلى حد العجز عن تأليف قصة عن أحدهما؛ إذ ليس لأحدهما اختبارات، لا أخطار ولا اقتحامات ولا أخطاء ولا

إصابات، ولا سعادة ولا شقاء، يمكن أن نرويها للقارئ. هي حياة بلا عبرة وبلا دلالة، هي حياة ملغاة، أو هي لغو لحياة.

ولذلك فكرت في أن أؤلف قصة عن حياة أخرى تافهة، ولكنها تحتوي شيئًا من الاختبارات ترفعها إلى مقام الاهتمام عند القارئ.

هي قصة شاب نشأ في عائلة ثرية في مصر، فلم يتعلم لأنه كان مدللًا أو هو تعلم القراءة ولكنه استغنى عنها، فكان لا يشغل بها فراغاته، ووقته كان كله فراغًا. فلما بلغ العشرين جعل يصيد الفتيات ويتنزه وإياهن في السيارات، ثم عرف بعد ذلك عاهات الترف، حين تكثر النقود أو تزيد على الحاجات، فيجد اللذة في إنفاقها على التفاهات ويعود هو بعد ذلك تافهًا يمارس التفاهة في جد وعرق.

كان ينفق كل ليلة على الانغماسات الكحولية والجنسية نحو عشرة جنيهات؛ أي كل دخله. وكان يعود إلى بيته بعد منتصف الليل ويستيقظ في الصباح كي يتجول بسيارته أو يكالم صويحباته في التليفون. وحاولت أمه أن تكفه فكان ينهرها، ثم بعد ذلك صار يضربها حتى كفت.

وماتت أمه وفرح بموتها كثيرًا، وأصبحت لياليه حمراء حافلة بالانغماس، ولم يكن يجالسه غير إخوان لهم مزاجه ولا يرتفعون على مستواه، وكان حديثهم نكات وأحاديث عن الفتيات والراقصات والهدايا التي اشتراها أحدهم لحظيته الجديدة، وقد سمن لوفرة الطعام الذي كان يأكله وللراحة الدائمة التي كان يجدها. وكانت الأحداث تمر بمصر،

مظاهرات ومفاوضات ووزارات، ولكن كل ذلك لم يكن يصل إلى وجدانه؛ لأنه كان يعيش بحواسه دون عقله.

وأخيرًا تزوج راقصة كان عشقها طويلًا، وحملته الراقصة على أن يشتري لها من الأحجار اللامعة التافهة الغالية ما بلغت قيمته الألوف من الجنيهات، ثم أحبت غيره وأحبها هذا الغير. وذات يوم حمل هذا مسدسًا وطلب إليه أن يطلِّقها، واشتبك الاثنان، وأخيرًا طلَّقها.

ثم أحب امرأة أخرى وتزوجها، وتوالت حوادث زواجه أو عشقه حتى هوت ثروته إلى ثلث ما كانت عليه، وكان قد بلغ الثلاثين، فانقلب إلى زهد كان يعتقد أنه ديني، مع أن حقيقته أنه كان سيكلوجيًّا؛ أي كان سأمًا من الانغماس الجنسي السابق، كان صومًا بعد تخمة وهمودًا بعد جهد.

وقلت نفقاته فصار دخله يتوافر، وظن الناس فيه التدين، بل ظن هو نفسه ذلك، فكان يشتري بما يتوافر من دخله أرضًا جديدة حتى استعاد ما فقده وزاد عليه.

وكان قد حصل بثرائه على احترام الكثيرين، فتزوج ابنة أحد الكبراء الذي سأل عنه وعرف انغماساته السابقة واستقامته الحاضرة، وأحب زوجته لتدينه.

ولكنه مع كل ذلك كان معوج العقل؛ فلم يكن يعلم من معاني الدين إلا أنه الامتناع عن الخمر أو الزنى بالراقصات؛ وكان لذلك لا يجد حرجًا في مضايقة مجاوريه من المالكين الصغار حتى كان يضطرهم إلى بيع أرضهم

له، وقد باعوا له وافتقروا.

حياة تافهة حقًّا، ولكنها تزيد على تفاهة الحياة عند ذلك البواب بأنها كانت خادعة كما كانت ضارة، أُوذي بها المالكون الصغار حوله وجُردوا من ممتلكاتهم القليلة. وكان صاحبنا مع ذلك سادرًا يظن أنه تقي صالح.

أوديب صبيًّا

هذا الفصل هو «محضر» أو محاضر تحقيق للمعالجة النفسية أحب أن أنقل النقط البارزة فيها؛ كي يقف منها القارئ على أسلوب البحث وتحري الحقائق ووسائل العلاج كما يمارس كل ذلك المختصون في المعالجة النفسية، وأنا أنقله عن كتاب «حقول جديدة في المعالجة النفسية» للدكتور دافيد ليفي من جامعة كولومبيا بالولايات المتحدة.

ولست أهدف من ذلك إلى طرافة البحث وإنما إلى منفعة القارئ في استبصاره بالمرض النفسي، كيف ينشأ خفيًّا متسللًا وكيف ننبش عنه حتى نخرجه ونطرده، وأنا هنا ناقل محايد.

موضوعنا هنا صبي بلغ الثالثة عشرة من عمره؛ أي سن المراهقة. كان إلى هذا السن متقدمًا في دروسه بل متفوقًا، كما كان على أخلاق سوية، مهذب اللفظة والإيماءة يحبه زملاؤه كما يحبه معلموه، يواظب على استذكار دروسه ويلعب مع سائر التلاميذ ويؤانسهم ويلتذ الحياة المدرسية والحياة البيتية أيضًا.

ولكن بعد هذه السن؛ أي في الشهور التي أعقبت المراهقة وهو لا يزال دون الرابعة عشرة، تغيرت أخلاقه وساء سلوكه فتخلف في الدراسة، وبعد أن كان مهذبًا في كلماته وإيماءاته صار وقحًا تجري على لسانه كلمات جنسية بذيئة بل فاحشة، كما كان يشير بيده إشارات دنسة. وشكاه

زملاؤه إلى ناظر المدرسة، وهدده هذا بالعقوبات الصارمة، وتكررت الشكاوى وتكررت العقوبات. وأخيرًا فكَّر الناظر في فصله من المدرسة، ولكنه قبل هذا القرار الحاسم، رأي أن يستشير أمه ويبحث معها هذه الحال الجديدة التي طرأت على الصبي.

وجاءت الأم، وجرى الحديث بينها وبين الناظر، وأنكرت هي اللغة البذيئة التي قيل لها إن ابنها يستعملها مع زملائه؛ إذ كانت هي لا تعرف من ابنها سوى أنه مهذب كامل، ولكنها اعترفت بتخلفه وأسفت على ذلك، وزعمت في النهاية أن ابنها إنما «فسد»؛ لأنه اختلط بصبيان لم يتهذبوا، وأنه تعلم منهم عاداته السيئة الجديدة.

وهدد الناظر الأم بفصل ابنها من المدرسة، وهذا أخطر ما يمكن أن يقع بصبي في سن الثالثة عشرة، وتركته الأم وهي ترجوه أن يتريث وأن يعطي ابنها فرصة أخرى لعله يعود إلى استقامته السابقة.

وعادت الأم إلى بيتها، وعادت الرحمة إلى قلب الناظر.

وفكَّر الناظر في الفحص الطبي النفسي على الصبي، وهو يرجو أن يجد به علة يمكن أن تُشفى فلا يحتاج إلى فصله.

والعادة —— ولا تنساها هنا أيها القارئ —— أنه قبل الفحص الطبي النفسي عن المريض أيًّا كان يجب أن يُفحص جسمه؛ إذ لعل هناك مرضًا خفيًّا هو الذي أحدث التخلف عند هذا الصبي؛ فقد كان ذكيًّا ثم صار بليدًا، فلماذا؟

جاء الطبيب ففحص عن الحلق والأنف، عن الزوائد واللوز، فلم يجد شيئًا، وفحص عن عينيه فلم يجد شيئًا، ثم فحص عن النقص الفيتاميني فلم يجد شيئًا، ثم فحص عن الدم فوجد هناك شبهة بأن الصبي يحمل في جسمه جراثيم المرض الزهري المعروف باسم السفلس. وسأل الطبيب واستقصى، فعرف أن والد الصبي مات بالنقطة وهو في حوالي الأربعين من العمر، وأن أمه أجهضت مرتين أو ثلاثًا قبل وفاة زوجها بدون إرادتها، فرجح من هذه الظروف أن الأب كان مصابًا بالسفلس وأنه ترك جراثيم المرض في ابنه، وأن الزعزعة النفسية الأخيرة التي ظهرت في الصبي إنما تعود إلى بدايات من الشلل الذهني الذي يبدو أحيانًا في مَن يحملون جراثيم هذا المرض.

وهنا وجد الناظر والمعلمون أنهم إزاء بصيص من نور يجب أن يتعقبوه إلى نهايته، لعل فيه الحل لحالة الصبي، ولعلهم يجدون الشفاء القريب، وطلبوا من أطباء آخرين الفحص عن الدم.

ولكن هذا الفحص الثاني أوضح لهم أن الصبي برئ من هذا المرض الزهري براءة تامة. وهنا نفض الجميع أيديهم من شبهة المرض الجسمي؛ أي مرض السفلس.

وعاد البحث إلى المرض النفسي.

وجاء أولهم – أول الأطباء النفسيين – وبحث وفحص.

وانتهى إلى تقديم تقرير قال فيه إن التفسير لتخلف الصبي واضح حين أخذت البلادة مكان الذكاء عنده؛ فقد كان الصبي إلى سن الثالثة

عشرة قوي الذاكرة يفكر بذاكرته، وكانت دروسه كلها إلى هذه السن استذكارًا فقط، فلما ارتقى إلى الصفوف العليا حيث الدروس تحتاج إلى التصور أكثر مما تحتاج إلى الاستذكار قصر وتخلف، فالمسألة إذن طبيعية، فإنه وصل إلى حدود ذكائه وليس له علاج.

ولكن هذا اليأس لم يرضِ أحدًا: لأننا إذا فرضنا أن التخلف «طبيعي»، فكيف نفسر البذاء والفحش في الكلمات والإيماءات الجنسية الوقحة؟ وهي كلمات وإيماءات لم يكن يعرفها هذا الصبي قبل الثالثة عشرة من عمره.

وأُعيد الفحص النفسي على يد طبيب آخر.

وانتهى هذا الطبيب الآخر إلى هذه المقدمات والنتائج: هذا الصبي هو وحيد أمه؛ أي إنه نشأ مدللًا، لم يُصدم قط في طفولته بما يُصدم به الطفل حين يجد له أخوة في البيت، وكان لهذا السبب مهذبًا يبتسم ويأتمن الدنيا التي رسمتها له أمه في طمأنينة وسلام. فلما ذهب إلى المدرسة وجد أجلافًا كبارًا من التلاميذ يعتدون عليه، كما وجد حركة وصخبًا. فدافع عن نفسه بالكلمات والإيماءات البذيئة؛ لأنها تكسبه سيطرة سهلة. ولو أن هذا الصبي كان قد أُرسل إلى مدرسة «خاصة» من مدارس الأثرياء حيث يجد في الوسط الجديد ظروفًا تشبه وسطه القديم في البيت، لما تخلف في الدراسة ولما لجأ إلى البذاء والفحش.

ولكن هذا التفسير لم يقنع أحدًا؛ إذ هو تفسير سطحي واضح

السطحية.

وجيء بالطبيب الثالث. وبحث وفحص. وانتهى هذا إلى القول بأن بالصبي بداية شيزوفرينيا. ويعني هذا المرض أن المريض ينفصل من الدنيا، نفسيًّا، انفصالًا تامًّا أو كالتام. فيهمل الواقع ويستسلم لخيالاته وأحلامه؛ وذلك لأنه يكره الواقع ولا يطيقه.

وإنما كره هذا الصبي الواقع؛ لأنه خرج من بيته وهو مدلل عند أمه لا يجد أية صعوبة في الدنيا. كل شيء وُفر له. ووضِع في مدرسة يجد فيها الصدمات تلو الصدمات من الدروس إلى المعلمين إلى الزملاء الأجلاف من التلاميذ، فشرع يتخيل ويحلم؛ أي شرع يتكاسل ويتثاءب. وربما ينتهي بالانفصال التام من الواقع ... أي الجنون.

ولكن الأم والناظر والمعلمين وسائر الأطباء النفسيين لم يقتنعوا بهذا التفسير بل عدوه سخافة؛ لأن الشيزوفرينيا لا تصيب الصبيان لمثل هذه الأسباب الصغيرة بل التافهة. وفي كل إنسان منا قدرة على التكيف للأوساط الجديدة إذا لم يكن الاختلاف بينها وبين الأوساط السابقة كبيرًا فادحًا.

وجيء بالطبيب الرابع، فبحث وفحص وانتهى بأن عند الصبي «مركب نقص»؛ ذلك أنه نشأ وحيدًا في نعومة ورفاهية وسهولة، ثم فوجئ بوسط المدرسة وما فيه من خشونة ومشاق وصبيان كبار، فأراد أن يتعوض عن نقصه بوقاحة اللفظة وفحش الإيماءة.

ولكن هذا التفسير لم يقنع أحدًا أيضًا.

وأخيرًا جاء الطبيب الخامس، جاء وهو يسير بخطوات كأنها وثبات من المرح والغبطة، وهو يقول: «وجدتها»!

ماذا وجد؟ وجد «مركب أوديب».

والتفتت العيون وانتبهت العقول ... الولد يعشق أمه.

قال الطبيب: إن الصبي كان سويًّا إلى سن المراهقة حين شرع بعد ذلك في النشاط الجنسي الانفرادي، يقفل على نفسه الغرفة ويستسلم للخيالات الجنسية. ويكاد جميع الصبيان يفعلون ذلك في هذه السن، ولكن الذي وجده هذا الطبيب عند هذا الصبي أن خيالاته كلها وقت هذا النشاط كانت ترتكز في أمه، والصبي ينكر ذلك حين يكون في وعيه، ولكنه حين تسلط عليه الأسئلة وهو في الاسترخاء؛ أي حين يستسلم لعقله الباطن، يعترف بأن أمه هي موضع نشاطه الجنسي الانفرادي.

وأخذ الطبيب يشرح: وضعت الأم ابنها قبل ١٣ سنة. وكان عمرها وقتئذٍ ٢٢ سنة شابة حلوة، تضم الطفل إلى صدرها فيجد الطراوة والنعومة، وفي كل طفل نوازع جنسية مبهمة تعم الجسم كله تقريبًا، ثم تتحيز مكانها المعروف بعد ذاك في سن المراهقة. ولما مات الأب رأت الأم في ابنها «رجل البيت» الذي يقوم مقام والده، وكانت أيام والده تقدم له فطوره وهو في السرير، فلما مات والده صارت تفعل مثل ذلك مع الابن، أليس هو الذي أخذ مكان أبيه في البيت.

ولما بلغ الصبي سن المراهقة وجد أن قامته تعلو قامة أمه، كما لو كان زوجها وليس ابنها.

ذكريات الطفولة، ذكريات النفس، قد انتعشت أيام المراهقة.

ولكن ماذا في كل هذا مما يلقي شعاعًا على حالته الحاضرة في تخلفه عن دروسه، وفي غرامه بالكلمات والإيماءات المفاجئة التي حملت ناظر المدرسة على التفكير في طرده من المدرسة؟

الصبي ابن وزوج، هذه حالة لا تُطاق.

هو بين حب وكفاح: حبه لأمه الذي لا يقدر على رده، والذي يتضح له من خيالاته وقت نشاطه الجنسي الانفرادي، وكفاحه حين يحاول أن يطرد من ذهنه هذا الحب الذي يعرف أنه دنس ونجاسة، وأن علاقته بأمه يجب أن تقتصر على الاحترام.

والصبي في عجزه يحاول في تعب وحيرة أن يحل اللغز.

وهو يحله بأسلوب الأطفال أو الصبيان: فإنه يدافع عن نفسه بكلمات فظة بذيئة عن الشئون الجنسية.

وإذن هو في اختلاط ذهني يعطله عن الدرس، وهو في بذاء جنسي يدافع به عن موقفه السري.

ولكن ما هي نصيحة الطبيب هنا بعد هذا التشخيص؟

ينصح الطبيب بإرسال الصبي إلى مدرسة داخلية عدة سنوات حتى ينسى صورة أمه، أو ينصح للأم بأن تتزوج وتعقب له أخوة ينزعون منه موقف التدليل السابق الذي أدى إلى إحساسه الجنسي الحاضر.

وإلى هنا أقف، ولا أعلِّق؛ لأني أحب أن يختمر هذا الموضوع، كما نقلته في أمانة، في ذهن القارئ بلا تدخل مني. وعلى القارئ أن يذكر أن البؤرة في سيكلوجية فرويد هي «مركب أوديب»؛ أي حب الصبي لأمه حبًّا جنسيًّا.

وأنا هنا ناقل محايد لا أكثر.

الخمر والمخدرات الأخرى

جاءني (في يناير من ١٩٥٦) خطاب مسهب أجتزئ منه ما يلي:... وأنا شاب في الثامنة والعشرين من عمري وجندي في الجيش، متزوج منذ سبعة أعوام ولي ثلاثة أولاد، وقد أدمنت على تعاطي الأفيون منذ خمسة عشر عامًا، وكل نقودي تذهب في هذا المخدر الملعون الذي تعلقت به من رفاق الصبا، وعندي رغبة شديدة جدًّا في التخلص منه، ولكني لا أستطيع مطلقًا التخلص منه ولو ليوم واحد، وأنا أحب زوجتي وأولادي جدًّا، ومن أجل هؤلاء أريد أن أتخلص منه، فأرجو أن تدلني يا سيدي الكاتب العظيم على الطريق الذي أسلكه. وقد التجأت إليك وأملي عظيم في أن تهديني إلى الطريق الذي أسلكه في التخلص من هذا الداء ... وهل هناك أمل في أن أتخلص من هذا المخدر، علمًا بأنني لا أقوى على البعد عن أولادي بدخول مستشفى؟ وإني على استعداد لتنفيذ كل ما تراه لكي أعود إلى حياة جديدة ...

هذا واحد من عشرات الألوف الذين يتعاطون المخدرات. ومع أننا قد أوجدنا قوانين قاسية، بل غاية في القسوة، لمعاقبة المتَّجرين بالمخدرات والمتعاطين لها، فإننا ما زلنا نجد لهذه التجارة سوقًا سوداء في أنحاء بلادنا. وهذا برهان على أن قسوة القوانين لا تجدي في الردع، وإنما المجدي هو أن نبحث عن جذور الجريمة ونقتلعها من مكانها.

وجذور الجريمة هنا أننا جميعًا في مجتمعنا المتمدن نكاد نعيش على

أعصابنا مرهقين متوترين، ونحتاج إلى المنبهات والمخدرات، ونحن نتناول منها القهوة والشاي والدخان والخمر، وجميعها مخدرات أو منبهات تنعش الجسم أو العقل أو تخدره بعض الوقت، وحكومات العالم المتمدن كله تعارض في استعمالها.

ذلك أن حياتنا الاجتماعية العصرية تحتوي الكثير من التوترات التي لم يكن يعرفها أسلافنا في بيئاتهم الريفية المطمئنة. كما أننا نخلو من إيمانهم المطلق بالقَدر ولا نرضى بالقناعة التي كانوا يرضونها؛ فإننا نحيا بمواعيد، ونصادف مخاطر، ونطمح ونقلق؛ ولذلك نحتاج إلى مخدر أو منبه؛ الأول يهدئنا فننسى همومنا، والثاني ينبِّهنا فنتحمل همومنا.

وجميع الأمم الأوروبية تشرب الخمور فلا تحتاج إلى المخدرات مثل المورفين، أو الكوكايين، أو الهيروين. وهي تبيع الخمور رخيصة فيجد فيها الفقير مثلما يجد الثري مخدرًا حسنًا يغنيه عن المخدرات الفاتكة.

قد يُقال إن إدمان الخمور يؤذي. وهذا صحيح، ولكن الإدمان وحده هو المؤذي. أما الاعتدال فلا يؤذي. بل الأرجح أنه ينفع شارب الخمر خاصة بعد سن الخمسين والستين؛ لأن الخمر تبسط الشرايين في حين أن القهوة والشاي والدخان تقبضها، ومن مصلحة المسنين أن تكون شرايينهم على الدوام منبسطة يجري فيها الدم، ويصل إلى الأنحاء التي كان يمكن ألا يصل إليها بسبب تصلب الشرايين الذي ينشأ عادة في الشيخوخة ويجعل مسير الدم شاقًّا أو قليلًا.

ورايموند بيرل في كتابه «الكحول» يؤكد أن الخمور تطيل الأعمار إذا تُنولت باعتدال. وهذا هو اختبار جميع الأمم، حتى فرنسا التي يكثر فيها الإدمان المضر يكثر فيها أيضًا المعمِّرون بعد الخمسين.

ونحن تجاورنا سوريا ولبنان وتركيا ويونان وكلها تقريبًا — حتى على المنع بالقانون — تزرع الأفيون والحشيش، ولكن الفلاحين الذين يزرعونهما لا يتعاطونهما لسبب بسيط، هو أنهم يشربون الخمور التي تُباع في بلادهم رخيصة. وليس في الدنيا أسهل من صنع الخمور. ولذلك يصنعها هؤلاء الفلاحون ويشربونها ولا يوجد بينهم مَن يتعاطى الأفيون أو الحشيش اللذين يزرعونهما.

يجب أن نجابه الحقائق بلا عبث أطفال، ولنفكر تفكيرًا عضليًّا.

الحقائق أن حياتنا مليئة بالقلق ونحن نحتاج إلى ما يرفِّه عنا. وإذا كان قلقنا خفيفًا فإننا نقنع بالقهوة والشاي والدخان. ولكن اذا كان هذا القلق مرهقًا، حين نخشى مثلًا الإفلاس في مضاربات البورصة أن نشك في نجاحنا في عمل معين. أو نخاف على أبنائنا أو أنفسنا من مرض، أو نتوقع معاكسات، أو تداخلنا شكوك بشأن صحتنا، أو حين تضطرم الغيرة من المنافسة القاتلة في نظامنا التجاري الاقتنائي في كل هذه الحالات نحتاج إلى ما يخفف عنا توتراتنا بمخدر، والخمر هي خير المخدرات.

وأنا أكتب هذه الكلمات بعقلية مدنية لا شأن لها بالأديان. وقارئ كلماتي إذا كان متدينًا متحمسًا لدينه يستطيع أن يهملها. ولكني أحب مع

ذلك أن أنبه إلى أن كثيرين من رجال الدين يستطيعون — كما هو شأنهم على الدوام — إيجاد مخرج بالتأويل الحسن لمصلحة الصحة العامة.

ولذلك أعتقد أنه يجب، وجوبًا قاطعًا، على حكومتنا أن تيسر للشعب شرب الخمور بأن تبيح صنعها وبيعها وإيجاد الحانات، مع الرقابة الدقيقة، حتى تُصنع نقية خالية من الشوائب المؤذية. ولكن أعظم وسائل التيسير أن تُباع رخيصة.

وعندما تصبح الخمور صناعة مصرية عامة فإننا يمكننا أن نزرع نحو ربع مليون فدان أو أكثر من الكروم، تستخدم نحو ربع مليون عامل في زراعتها واستخراج الخمور منها. بل نستطيع أن نصدِّر من الخمور ما تبلغ قيمته ملايين الجنيهات للأقطار الأوروبية التي لا تنضج فيها الكروم كما تنضج في شمسنا وعلى أرضنا.

ثم في الوقت نفسه لا نخشى الأخطار المهلكة من الأفيون والمورفين والكوكايين والهيروين والحشيش. وأرجو القارئ ألا يعتقد أني هنا جريء مخاطر. فإن الخمور تُباع في كل مكان في مصر ولكن للأثرياء فقط، وذلك لارتفاع أثمانها. أما الفقراء فيعجزون عن شرائها. وليس هذا عدلًا.

فنحن نجيز بيع الخمور للأثرياء الذين يستغنون بها عن المخدرات، ثم نعاقب الفقراء لأنهم يشترون المخدرات المهلكة بدلًا من أن نرخِّص أثمان الخمور حتى يشتروها ويشربوها كما يشربها الأثرياء.

لو أن الخمور كانت تُباع في مصر رخيصة وفيرة لما شقي هذا المسكين

الذي شكا إليَّ تعاطيه الأفيون. وهناك آلاف مثله يعانون مثل نكبته التي لا تعود نتائجها على شخصه وحده بل أيضًا على زوجته وأبنائه.

ولست أخيرًا، أنكر أن ما نعانيه من قلق نستطيع أن نتخلص منه بالتحليل النفسي. ولكن مثل هذا العلاج يعد ترفًا لا يطيقه غير الأثرياء؛ إذ هو يتكلف كثيرًا.

والخمور هي، كما قيل، صابون الهموم؛ أي علاج للقلق. وصحيح أنها ليست العلاج الأمثل، ولكنها خير من جميع المخدرات الأخرى. وإذا كانت توتراتنا الاجتماعية تطالبنا بالهروب منها بمخدر ما، فإن الخمر هي خير المخدرات.

وأحسن ما في الخمور أنها لا تطالبنا بزيادة الجرعة، فإذا كنا في سن الخمسين مثلًا نتناول ثلاثة كئوس ونكتفي بها، فإننا نبقى على هذه الجرعة عشرين أو ثلاثين سنة بلا تغيير. وهذا خلاف ما يحدث في المخدرات الأخرى التي نفتأ نستزيد منها حتى نبيت ضحاياها.

لقد جربت أمتان عظيمتان من أعظم الأمم المتمدنة في العالم تجربتين تستحقان التفاتنا في صدد هذا الموضوع.

الأمة الأولى هي الولايات المتحدة التي منعت الخمور منعًا شاملًا وباتًّا أكثر من عشر سنوات، فكان كل مَن يصنعها أو يبيعها يُعاقب بأقصى العقوبات؛ فماذا كانت النتيجة؟!

كانت انتشار المخدرات المهلكة الأخرى ... الأفيون والحشيش والهيروين والكوكايين والمورفين. وكان أيضًا بيع الخمور السيئة، بل السامة، التي يُصنع كحولها من الخشب.

وعادت الولايات المتحدة، وهي نادمة، إلى إباحة الخمور.

هذه تجربة. والتجربة الثانية قامت بها حكومة سويد.

فقد حددت سويد بيع الخمور، وجعلت الحاني — البائع للخمر في الحانة — موظفًا حكوميًّا له حق الامتناع عن البيع إذا وجد أن الشارب قد ثمل، كما جعلت بيع الخمور بالبطاقات؛ ثم ماذا؟

ثم انتهت إلى أن جميع هذه القيود لا تجدي؛ لأن شريب الخمر يستطيع الحصول عليها بألف طريقة وطريقة، فألغتها، وأصبحت الخمور مباحة لجميع أفراد الشعب.

وهنا ذكرى؛ ففي حوالي سنة ١٩٢٠ كان شبابنا قد انغمسوا في الكوكايين المخدر المهلك، فسَنَنَّا قانونًا لمعاقبة المتجرين به. وكان الأجانب المقيمون في بلادنا لا يزالون يستمتعون بامتيازاتهم، وكان من هذه الامتيازات ألا يعاقب أحد منهم على عمل لا يُعد جريمة في بلاده. ووجدنا — وهنا العبرة — أن كثيرين من الأجانب المتجرين بالمخدرات عندنا لا تمكن معاقبتهم؛ لأن بلادهم لا تُعاقب على هذه الجريمة. ولماذا لا تعاقب؟

لأن مواطنيهم يشربون الخمور ويقنعون بها ولا يعرفون المخدرات

الأخرى، ولذلك لم تنص قوانينهم على عقوبة لتجارة لا يعرفونها.

هنا تجربتان تحثان على التفكير ثم على العمل.

إني أعرف، بل أؤمن، بأن المستقبل سيؤيدني. ولكن لماذا لا نبدأ من الآن؟

مع كل ما ذكرت عن الخمور والمخدرات أحتاج إلى أن أذكر أيضًا للقراء أن الرغبة فيها جميعها تعود إلى مركبات وتوترات، وأن الرجل السليم، الذي يسلك في الحياة سلوكًا سليمًا ينأى به عن القلق والخوف، وإحساس النقص (بجميع أنواع النقص)، هذا الرجل لا يحتاج إلى خمور أو مخدرات، بل أحيانًا لا يحتاج حتى إلى القهوة والشاي والتدخين. وكل منا يعرف الناس الذين امتازوا بهذه الميزة.

ولكن أكثرنا ليس على هذه الحال.

ثم لست أنكر أننا نستطيع أن نعالج، بالتحليل النفسي، المدمنين على الخمور أو المخدرات، وذلك بأن نستخرج منهم العقد الدفينة التي حملتهم على أن ينشدوا السعادة بالنسيان؛ أي الهروب، وبأن نحملهم على أن ينشدوها بالوعي والتعقل. وفي مجتمع سليم لا يبعث على القلق والخوف نستطيع أن نجد السلام النفسي يعم جميع الأفراد. ولكن للأسف لا يمكن أن نقول إن مجتمعنا الاقتنائي القائم على المباراة القائلة التي تولد الغيرة والخوف، لا يمكن أن نقول إن مجتمعنا هذا سليم.

والخمور هي أقل المخدرات إيذاء للنفس والجسم، وجميع المتمدنين يشربونها في اعتدال، وبأسلوب متمدن لا يجعل منهم حيوانات، ولا يعتم عقولهم ويفسد نفوسهم كما هي الحال في أولئك الذين يتناولون المخدرات. وجميع الأمم التي عرفت الخمور والمخدرات أجازت الأولى ومنعت الثانية. وقد فعلت ذلك حكومتنا، لليقين الثابت بأن الخمور، مهما تجاوز مستعملوها حدود الاعتدال، فإنهم لا يزالون أقل تعرضًا لخطرها من أولئك الذين يستعملون المخدرات. نحن نبيح بيع الخمور في مصر، ولكننا نعاقب بالسجن المؤبد أولئك الذين يبيعون المخدرات. ونحن نبيح لكل مصري تناول الخمور إذا كان قادرًا على أداء أثمانها الباهظة، ولكننا نعاقب مَن يستعمل المخدرات بالسجن خمس أو عشر سنوات.

وفي هذا برهان واضح على أننا نخشى خطر المخدرات ولا نخشى خطر الخمور. ولا أعتقد أن هناك مَن لا تهز ضميره هذه العقوبات القاسية التي يلقاها المتجرون بالمخدرات ومتناولوها. وكان يمكننا أن نستغني عنها لو أن الخمور كانت رخيصة متاحة للحشاشين والأفيونيين. وليس هذا رأيي وحدي وإنما هو رأي جميع رجالنا الذين يكافحون المخدرات في بلادنا أيضًا.

كيف نتعلم السعادة

نتعلمها بأن نُسعد الناس كيما نسعد نحن. وذلك الذي يستهلك سعادته دون أن يشرك فيها غيره لن يحصل على كل ما يستحق أو يطلب منها؛ ذلك لأن الأنانية وحدها لا تسعدنا، إنما الذي يسعدنا أننا نحس أننا مشتركون مع غيرنا.

وقد يكون هذا الاشتراك شخصيًّا حين يسعدنا مثلًا أن نسعد أمهاتنا أو أبناءنا أو أصدقاءنا، أو حين نسعد طفلًا يتيمًا أو أسرة بائسة. ولا تزال في ذهني صورة سيدة أرملة مات زوجها ولم يعقب، فتبنت عملًا خيريًّا هو العناية بمعهد للصبيان اليتامى كانت تهتم بهم وتتعب وتعرق من أجلهم كما لو كانت أمهم التي تسعد بسعادتهم، وكانت سعيدة حقًّا.

وهناك نوع آخر من السعادة لا نعرف فيه شخصًا معينًا أو أشخاصًا معينين نسعدهم ونسعد بسعادتهم، وذلك حين نحس اندغامنا في قوميتنا ووطننا، أو فيما هو أكبر من ذلك؛ أي الإنسانية. فنخدم مبدأ وندعو إلى مذهب، ونكافح ونتعب لأننا قد رسمنا حالًا مثلى للوطن أو للإنسانية نهدف إلى تحقيقها، ولا نبالي ما نلاقي من آلام في سبيلها.

هذه هي السعادة الكبرى التي لا نبالي أن نفقد سعادتنا الصغرى في سبيلها. فالهموم الشخصية مثل الإثراء، والنجاح، وتحقيق الملذات الشخصية، كل هذا لا قيمة لها عندئذٍ في جنب هذا الأمل الكبير الذي يغمرنا.

وعندما نصل إلى هذه الحال العالية يكون لارتقاء الصين، أو انتصار السلام، أو ظهور دواء للسرطان، أو هزيمة الجهل والفقر والمرض في مصر، أو زوال الاستعمار، أو نحو ذلك، ما يملأنا سعادة لا تُقدَّر بجانبها أية سعادة شخصية أخرى، وعندئذٍ نفكر بالعقل العام والاعتبارات العالمية.

ولكن يجب أن نتدرب على السعادة منذ طفولتنا، التدريب الذي يفهم منه الصبي والشاب كيف يتجاوز شخصه إلى أمه، ثم بعد ذلك يتدرب على سعادة أرفع وأكبر، وهي كيف يتجاوز بحبه أسرته إلى وطنه، ثم إلى العالم؛ أي إلى الإنسانية.

ألَّف ألدوس هكسلي الأديب الإنكليزي (الأمريكي الآن) كتابًا عن الميسكالين.

والميسكالين مادة مخدرة تُستخرج من جذور الككتوس الذي نعرف من أنواعه في مصر «التين الشوكي»، ولكنه يختلف عن المخدرات، كما يزعم ألدوس هكسلي الذي جرَّبه جملة مرات.

ذلك أن المواد المخدرة تخدِّر عقولنا وأجسامنا معًا، أما الميسكالين فيخدر الجسم فقط، ويجعل العقل على يقظة كبيرة، ولكنها ليست يقظة التفكير المنطقي وإنما هي يقظة وجودية حتى لنرى النور أضوأ، والزهر أنضر، والإحساس بالرضى كاملًا، وهذا مع استرخاء يجعلنا سعداء.

ونعني هنا السعادة المصنوعة المجلوبة، بل السعادة الزائفة.

ويقول ألدوس هكسلي إن هذا الميسكالين يمتاز على جميع المخدرات والخمور من حيث إنه لا يطفئ العقل، وأيضًا لا يضر.

وواضح أن الرجل السعيد حقًّا، الذي تنبع السعادة من قلبه كما لو كانت إشعاعًا نفسيًّا، لا يحتاج إلى الخمور أو المخدرات أو الميسكالين. وكلنا يعرف هؤلاء السعداء الذين لا يحتاجون حتى إلى فنجان من القهوة أو الشاي، فضلًا عن المخدرات أو الخمور. وقد كان برنارد شو كذلك.

كان كذلك لأنه كان سعيدًا بأن أسعد غيره. وكان سعيدًا أيضًا بأن اعتنق الاشتراكية منذ شبابه وجعل منها كفاحًا لخير الإنسانية. فأصبح إطار نفسه العالم الكبير، وليس شخصه الصغير. كما أنه كان فنانًا يلتذ صناعته ولا يسأمها.

وكثيرون منا قادرون على ذلك إذا تدربوا على الحب والخدمة، وإذا اعتنقوا المذاهب الإنسانية التي تغمر نفوسهم بل تغنى فيها نفوسهم، ولكن منا مَن يعجزون عن ذلك أيضًا؛ ولذلك يلجئون إلى الخمور أو المخدرات.

كثيرًا ما أتأمل السعداء الذين – كما قلت – تنبع سعادتهم كما لو كانت إشعاعًا من نفوسهم، فأجد فيهم هذه الصفات التالية:

إنهم غير أنانيين؛ فإن الأناني الذي يتعب كي يثرى ويقتني ليس سعيدًا؛ لأنه في الأغلب يحيا في جوٍّ من البغض يثير في نفسه أيضًا بغضًا. فلا يجد ذلك الحب الذي يستمتع به غير الأنانيين. ثم إن أنانيته لا تعرف حدودًا، فهو دائم الاهتمام والهم، يحاول الزيادة في الاقتناء، مثل أحد الأشخاص في قصة لتولستوي ما زال يقتني ويثرى حتى خطر له أن يخرج كي يعرف حدود أرضه الواسعة، فشرع يسير فيها، ويشتري زيادة عليها كلما استراح في مكان منها، حتى مات قبل أن يصل إلى نهايتها. وقلَّ أن تجد رجلًا

ثريًّا مفرطًا في الثراء في عصرنا وظروفنا إلا وهو مريض نفسيًّا وجسميًّا؛ لأن مشاكل الإثراء كثيرة مرهقة لا يتحملها مَن يفرط في مطامعه.

ولكننا نجد السعداء حيث نجد الحب للغير، وحيث الإنسانية والفن والرسالة، فالأم التي تحب ابنها سعيدة بهذا الحب، ولكنها تبتئس إذا جعلت هذا الحب أنانية، كأن ابنها بعض مقتنياتها التي تخشى ضياعها حتى ليعود اهتمامها به همًّا وقلقًا، وهي تحدد طاقاته وتحول دون نموه النفسي والعقلي بهمها وقلقها.

والفنان سعيد بفنه؛ لأنه يرتقي به ويجد فيه الجمال أو الكفاح المنشود.

وصاحب الرسالة سعيد برسالته، وهو يكبر بها وينضج مهما استهلكت من قواه ومهما عانى من فقر وحرمان بسببها.

ورجال المذاهب والمبادئ سعداء أيضًا؛ لأنهم يهدفون منها إلى خير الإنسانية.

وخلاصة القول أننا حين نهدف إلى السعادة يجب أن نتجاوز نفوسنا وأشخاصنا وأنانياتنا إلى ما هو أعلى منها جميعًا.

الرقص

لكل إنسان شخصية جنسية هي دليل مكانته من الجنس الآخر. فقد يكون أحدنا مربوكًا خجلًا في حضرة المرأة – أو العكس – أو قد يكون لبقًا رشيقًا. وهناك احترام أو احتقار نخص بهما المرأة أو الرجل لسلوك أحدهما في حضرة الآخر. والرجل الذي يطمح إلى شخصية محترمة لا يمكنه أن يرضى بموقف الخجل والاضطراب والخرس في حضرة الجنس الآخر؛ لأنه يحس أن له كرامة جنسية وأنه يحتاج إلى احترام المرأة أيًّا كانت، غريبة أم قريبة كهلة أم شابة. وهو حين يحس الاحتقار لنقص في شخصيته يضطر إلى الانزواء الذي يؤثر في نجاحه واتجاهه بل أحيانًا في اتجاهه الجنسي.

وحالنا في مصر سيئة كل السوء من هذه الناحية، وعواقب هذه الحال أسوأ؛ فإن الانفصال العام بين الجنسين يحيلنا في بعض الظروف إلى أجلاف في الكلمة والإيماءة والسلوك العام. وقد يكون الشاب من أقوم الناس أخلاقًا وأسماهم رقيًّا، ولكنه – للانفصال السابق مدى حياته – لا يعرف كيف يقعد إلى فتاة. فإذا حان وقت الخطبة للزواج عمَّه اضطراب وخجل يجعلان الفتاة تحتقره وتؤثر عليه مَن هو دونه في الأخلاق والرقي؛ لأن لهذا شخصية جنسية حسنة، أو قد يحدث العكس؛ أي يكون النقص في الفتاة حين تقعد إلى خطيبها فيرى فيها جمالًا، ولكنه الجمال الخشبي؛ لأنها صامتة ساكنة قد شملها الخجل والجمود.

ويجب أن نصرح هنا بكلمة مؤلمة، هي أن هذا الاضطراب الذي يعرو الشاب أو الفتاة وقت لقائهما إنما ينشأ من الانفصال التام السابق؛ لأن هذا

الانفصال قد ملأ الذهن في الأغلب بخواطر تناسلية. ذلك أنه حين تنعدم الصلات الاجتماعية بين الجنسين، فلا يكون لقاء في حفل، ولا مناقشة في ضيافة، ولا جدال في نادٍ، ولا معاملة في تجارة ولا مؤانسة في زيارة، ينحدر الخيال إلى الأصول البيولوجية الأولى. فالرجل ذكر فقط. والمرأة أنثى فقط. والاضطراب يحدث عند الاجتماع، عقب الانفصال السابق الطويل، فيكون – أي الاضطراب – برهانًا على هذا الخيال البيولوجي التناسلي الذي لم يجد قط ما يهذبه من علاقات اجتماعية أخرى.

ويجب أن نعالج هذه الحال السيئة في مجتمعنا بالتعليم الابتدائي المشترك، فلا تكون مدارس خاصة للبنين وأخرى خاصة للبنات، بل يتعلم كلاهما في مدرسة واحدة، تقعد البنت إلى جنب الصبي. ونستطيع أن نجعل هذه الحال عامة في المدارس الابتدائية وفي الجامعة. أما المدارس الثانوية فلا بأس من الفصل؛ لأن ثورة المراهقة تجعل الاجتماع خطرًا، كما يجب أن نُكثِر من اجتماعاتنا المنزلية، وفي النادي الرياضي أو الثقافي، وسائر الاجتماعات التي يجتمع فيها الجنسان، فينشأ عندنا جو متمدن يزيل عن الشاب والفتاة ذلك الارتباك أو الخجل الذي يسودهما في بعض بيئاتنا في الوقت الحاضر، وبذلك تتكون لهما الشخصية الجنسية الممتازة، فالرشاقة، والصراحة، والسعادة.

ولكن إذا كانت الحال قد بلغت في السوء مدى بعيدًا فإنها عندئذٍ تحتاج إلى علاج حاسم، وهذا العلاج هو الرقص الذي يُعدُّ مرانة ناجعة لإزالة «مركب النقص» الناشئ من رذائل التربية الانفصالية السابقة. فالشاب الخجول المرتبك عندما يتمرن على الرقص – ويجب أن يكون التمرين طويلًا ومختلفًا – يجد أنه قد

حقق في نفسه تغييرًا سيكلوجيًّا، وأنه يحس كرامة جنسية جديدة وأنه رشيق لبق، وكل هذا مما يعينه على النجاح في الحياة المدنية؛ لأن الشاب الذي يحس نقصًا في كرامته الجنسية يحس أيضًا مثل هذا النقص في كرامته الاجتماعية، ويبقى على الدوام قلقًا قد يقع في شذوذات جنسية.

والرقص – زيادة على ما ذكرنا – من أنجع الوسائل لمعالجة هذه الشذوذات الجنسية؛ لأن الرجل الذي يرقص مع امرأة يتجه الاتجاه الجنسي الصحيح بلا انحراف أو زيغ؛ إذ من غير المعقول أن يلتفت إلى غير المرأة في الخيال أو الواقع.

وهذا كسب كبير لكثير من الشبان الذين تقدمت بهم السن في العزوبة فزاغوا وانحرفوا. وفي مصر يشيع الانحراف الجنسي أكثر مما يشيع في أوروبا للانفصال القائم بين الجنسين؛ لأن الخيال لم يُدرَّب على الجنس الآخر بالمعاشرة السابقة والألفة الطويلة، فهو يشطح ويشذ. ونحن حين نأتي بالشباب الشاذ ونحمله على الرقص مع الجنس الآخر – وليس هذا سهلًا – نحاول أن نرده إلى الهدف الجنسي الصحيح، وهو عندئذٍ يكسب شخصية جديدة يسترد بها صحته وكرامته الجنسيتين معًا.

وفي طورنا الاجتماعي الحاضر قد يشق على العائلة أن تنصح لفتاتها بالرقص، ولكن إذا كان هذا الرقص في العائلة أو في النادي المحترم فليس هناك أي ضرر من هذه المرانة المفيدة لتصحيح شخصيتها المريضة.

الفهرس